

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

بقلم : الحبيب الدريدي

وَالْعِلْمُ - حُبُّ اللَّهِ إِلَيْنَا الْإِنْصَافَ - لَهْوَ أَسْتَى مَا تَهْفُو إِلَيْهِ الْهَيْمُ ، وَأَبْعَدُ مَا تَسَابِقُ فِي تَحْصِيلِهِ الشُّعُوبُ وَالْأُمَمُ ، إِذْ لَا تَنْهَضُ مَدْنِيَّةٌ إِلَّا عَلَى ثَابِتٍ أَسَاسِيهِ ، وَلَا تَنْجَلِي عَقْمَهُ إِلَّا بِضِيَاءِ نِيرَاسِيهِ ، وَلَا يَرْجِعُ عَقْلٌ إِلَّا بَعْدَ طَوْلِ مِرَاسِيهِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَبْقُ فِي ذِكْرِ آلَانِهِ وَأَمْتِدَاحِ نَعْمَانِهِ فَضْلُ كَلَامٍ يُدَبِّجُهُ نَائِرٌ قَبِيرُهُ وَيَفْخَرُ أَوْ يَنْظُمُهُ شَاعِرٌ فَبَيْتُهُ وَيَعْجَبُ ، وَحَسَبُ الْمَرْءِ أَنْ يَلُودَ بِشَوَاهِدِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَأَدْلَةُ الشَّرْعِ وَالْوَضْعِ فَإِنَّهُ وَاجِدٌ فِيهِ مَا يَفْنِي عَنْ الْبَيَانِ وَيَلْجِمُ كُلَّ لِسَانٍ ، وَيَفْحِمُ كُلَّ كَاتِبٍ وَخَطِيبٍ وَيُبْهِرُ كُلَّ عَاقِلٍ وَارِيبٍ .

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

إِلَّا أَنْ فِكْرًا وَشَجَتْ فِي قَلْبِي وَسَوَانِحِ أَلْحَتْ عَلَيَّ رَأَيْتُ الْأَفْهَامَ صَافِحَةً عَنْهَا وَالْأَقْدَامَ لَا تَكَادُ تَطُوقُهَا فَجَرَدْتُ لَهَا الْعِنَايَةَ وَأَفْرَغْتُ لَهَا الْخَاطِرَ لَعَلِّي أَنْ أَوْقِظَ مِنْ سِنَةٍ إِنْ عَرَضَتْ وَأَنْبَتَ مِنْ غَفْوَةٍ إِنْ كَانَتْ .

وَأَفْتَتِحُ الْكَلَامَ فِي الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْبِنَايَةِ الَّتِي يَجْدُرُ أَنْ يَرْسُخَ فِي ثَرَاهَا أَصْلُهُ وَيَسْقُ فَرْعُهُ ، وَيَحْلُوَ فِي حَقْلِهَا جَنَاهُ وَيَعْذِبُ وَرْدُهُ ، وَيَكْرُمُ فِي رِحَابِهَا نِتَاجُهُ وَيُنَارُ سِرَاجُهُ . وَالَّذِي عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنْ أَوَّلَى مَا يُسَدِّدُ لِلْعِلْمِ أَنْ تُشَادَ لَهُ الصُّرُوحُ الْمُهَيَّيَّةُ تُدَلِّي بِتَقْدُسِ سُلْطَانِهِ ، وَتُنْشَأُ لَهُ الْمَعَاقِلُ الْمُنْبَعَةُ تُحَدِّثُ بِرَفِيعِ مَكَانِهِ ، وَتَبْنِي لَهُ الْهَيَاكِلَ الْجَبَّارَةَ تُعْرِبُ عَنْ بَعِيدِ سَطَوَاتِهِ ، وَتَقَامُ لَهُ الْبُرُوجُ الْمَشِيدَةُ تَقْصِبُ عَنْ زَاوِيهِ سُلْطَانِهِ ، وَتَرْفَعُ لَهُ الْقِلَاعُ الشَّامِخَةُ تُبَيِّنُ عَنْ أَثِيلِ جَاهِهِ وَفَخَّارِهِ ، وَتَعْلَى لَهُ

المعابد الخاشعة تشيف عن عظيم جلاله ووقاره .

فالعلم لا تجدر به إلا المعالم الباهرة والمعابد الفاخرة صوتا له من الابتدال
والمهانة ، وقيام بما يليق به من حسن الخدمة والسدانة ، وإيقاء بما هو حقيق به من
علو الشأن والمكانة ، ونهوض بما هو خليق به من التنزيه والصيانة .

وكذا ينتصب بيت العلم وقد أبدعت عبارته فبهرت النفوس ويعتتها على الخشوع
والتقديس ، وأحكمت هندسته فراعت القلوب وهرتها إلى الرهبة والتوقير ، ونصدت
نصبه فهالت الأفئدة وأشغرتها التعظيم والإكبار ، وأثقلت زخرفته فخلبت الأبواب
وحملتها على التقدير والإعجاب ، وشمخت أعمدته فراقت الأعين وأخذتها إلى الهيبة
والإجلال .

* * *

وإذا كان الأمر كما علمت مع البناية فكيف بمن سيتبوا منصب التدريس ويتأثم
صناعة التعليم ويتقلد وزر التربية ، كيف ، وهو الذي سيناط به شحذ العقول وتغاف
الأذهان ، ويعهد إليه تنوير البصائر وتنبيه الأفهام ، ويعلق به تلهير النفوس وتهذيب
الطباع ، ويعقد عليه تجويد القرائح وتزكية الأرواح <http://www.archive.org>

لقد صار لزما عديدا أن ينتخب من صفوة العقلاء وجلة الحكماء ، ويندب وقد
أصبح في العلم شيئا إماما وضليعا عالما ، لا ينطق إلا عن ميراث حكمة ولا يتكلم
إلا بكلام قد حف بالعصمة ، ووجب أن يسطقى وقد حل من أهل العقل والنظر
محل النقيب ونزل من أصحاب الفكر والأدب منزلة الأريب ، قد حصل له بالتقوي
والحذق بعد عن التهاوت والخطل وتم له بالتبصر والاستنارة تنكب عن الزيف والزلل .
وإذ قد اعتلى إلى ذلك المكان الشريف السني وارتقى إلى ذاك المحل الرفيع العلي
فليكن منهلا سائغا يرده المغترقون ونبعا زلالا يغشاه الظماء المتعطشون .

ووجب - إلى ذلك - أن يكون ثبنا محققا وعالما مدققا ، ملازما في البحث الأناء
والصبر ، ومصاحبا في العلم الصرامة والجِد ، ومحبا في المعرفة الإغنا والكُد ،
ومرافقا في التحقيق النزاهة والتجرد ، ومعتصما في الدرس بالروية والتثبت ،

وَلَا نَزْدًا فِي الْحَاضِرَةِ بِالْفَقْهِ وَالْثَرِيقِ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُفَارِقًا الْعُجْبَ وَالْتِيَةَ
مُجَانِبًا الْكِبْرَ وَالصَّلَفَ ، لَا يُصْنِفِي لِحُلْجَاتِ النَّفْسِ وَوَسَاوِسِ الْهَوَى وَلَا يَأْبَهُ بِالرَّأْيِ
الْفَطِيرِ وَالخَاطِرِ الْعَابِرِ ، تَارِكًا السَّهْلَ السَّائِغَ الْبَسِيرَ ، رَاغِبًا عَنِ الطَّرِيقِ الْمَذَلَّةِ
الْمُسْلُوكَةِ زَاهِدًا فِي السَّبِيلِ الْمُطَوَّمَةِ الْمَطْرُوقَةِ ، لَا يَبْرِمُ أَوْ يَنْقُضُ إِلَّا أَنْ يَقْتُلَ الْأَمْرَ
عِلْمًا وَدِرَايَةً ، وَلَا يَبِيعُ أَوْ يَحْظُرُ حَتَّى يُفْنِيَهُ مَعْرِفَةً وَعِنَايَةً ، وَلَا يَجِيزُ أَوْ يَبْطُلُ مَا لَمْ
يَنْخُلْهُ تَجْرِبًا وَتَعْدِيلًا وَرَوَايَةً .

وَأَذْ قَدْ جَمَعَ إِلَى الْبِرَاعَةِ فِي الْعَقْلِ الْأَشْسَاعَ فِي الْعِلْمِ وَالصَّوَابَ فِي الْحُكْمِ وَجِبَ
أَنْ يَعْرِفَ الْجِهَةَ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا التَّشَبُّهُ وَالْإِقْتِدَاءُ فَيَحْفَظَ الدَّارِسَ عَلَيْهِ وَالْمُتَلَمِّذَ عَلَى
يَدَيْهِ عَلَى أَنْ يَفْتَنَسَ مِنْهُ وَيَأْخُذَ عَنْهُ ، وَأَنْ يَعْلَمَ السَّنَنَ الَّتِي يَتِمُّ بِهِ النَّاسِي وَالْإِحْتِدَاءُ
فَيَنْشَطُ الْجَالِسَ مِنْهُ مَجْلِسَ الطَّالِبِ الْمُسْتَزِيدِ وَالْمُلَازِمَ لَهُ مَلَازِمَةَ الرَّائِغِ الْمُسْتَفِيدِ إِلَى
أَنْ يَعْرِ عَلَى غِرَارِهِ وَيَقْفُو عَلَى أَثَارِهِ ، فَيُخْلِفَ عَقُولًا رَاجِحَةً وَأَذْهَانًا مُتَقِدَّةً وَيُعْقِبَ
أَفْهَامًا نَابِهَةً وَيَصَانِرَ مُسْتَتِيرَةً .

ثُمَّ إِنَّهُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الصُّرُوحِ الْمَهِيَّةِ وَالْبُرُودِ الْمَشِيدَةِ وَمَعَ مِثْلِ تِلْكَ النُّخْبَةِ مِنْ جِلَّةِ
الْعُلَمَاءِ وَصَفْوَةِ الْحُكَمَاءِ لَزِمَ أَنْ يَسِيرَ التَّعْلِيمُ وَفَقَ نِظَامُ صَارِمٍ دَقِيقٍ وَيَجْرِي حَسَبَ
مِنْهَاجٍ مُسْتَقِيمٍ مَسْطُورٍ وَيَتِمُّ طَبِيقُ تَدْبِيرٍ مَعْلُومٍ مَضْبُوطٍ ، وَكَذَا تُحْكَمُ دَرَجَاتُ
التَّعْلِيمِ وَمَرَاحِلُهُ وَتُحَدَّدُ حُلُقَاتُهُ وَأَطْوَارُهُ ، فَلَا يَرْتَقِي الْمُتَعَلِّمُ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى أُخْرَى إِلَّا
وَقَدْ مَلَ وَطَابَهُ عِلْمًا وَسَجَرَ إِنَانَهُ فَهَمًّا ، وَلَا يَجْتَازُ الْمُرَحَّلَةَ الَّتِي هُوَ بِصَدْدِهَا إِلَّا وَقَدْ
أَفَادَ مِنْهَا حَصَافَةً وَتَبَوَّعًا وَأَصَابَ فِيهَا ذِكَاءً وَالْمَعْيَةَ ، وَلَا يَدْعُ حُلُقَةً إِلَّا وَقَدْ بَرَزَ
فِيهَا وَلَمَعَ وَامْتَنَزَ وَتَفَوَّقَ ، فَيَسْتَقْبِلُ الدَّرَجَةَ التَّالِيَةَ وَقَدْ تَزَوَّدَ لَهَا مَعْرِفَةً صَحِيحَةً
وَتَحَافَةً مَتِينَةً وَاقْتِدَارًا عَلَى التَّفْكِيرِ وَالتَّوْلِيفِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّصْنِيفِ ، وَحَصَلَتْ لَهُ بِكُرَّةُ
الْمَزَاولَةِ وَنَوَامِ الْمَوَاطَلَةِ مَلَكَةٌ فِي اسْتِنْبَاطِ الرَّأْيِ الصَّائِبِ السَّيِّدِ وَمَوْهَبَةٌ فِي
اسْتِنْقَاصِ الْفِكْرِ اللَّطِيفَةِ الْأُيُبَةِ الْعَصِيَّةِ .

وَمَعَ إِحْكَامِ الدَّرَجَاتِ لَا بُدَّ مِنْ إِحْكَامِ الْحِصَصِ وَالْأَوْقَاتِ ، فَيُرَاعَى فِي مُدِيرِهَا

وَأَزَمَّتْهَا وَطُولُهَا وَقِصَرُهَا وَامْتِدَادُهَا وَاقْتِصَابُهَا مَا تَسْتَدْعِيهِ إِدَامَةُ النَّظَرِ وَإِنْعَامُ
التَّفَكُّرِ فِي دَقِيقِ الْمَسَائِلِ وَلَطِيفِ الْمُبَاحِثِ مِنْ اسْتِرْسَالِ وَصَبْرِ وَأَنَاقَةِ وَرِيثٍ ، وَيُعْتَبَرُ
فِيهَا الْحَدُّ الَّذِي قَدْ يَمِيلُ بِالنَّفْسِ - إِذَا طَالَتِ الْمُدَاسَّةُ وَتَفَرَّغَتْ مَسَالِكُهَا وَتَشَعَّبَتْ
سَبُلُهَا - إِلَى الْكَلَالِ وَالْمَلَالِ وَيَبْتَعِنُهَا عَلَى الضَّجَرِ وَالْانْقِطَاعِ وَيُودِرُهَا وَنَى وَوَهْنًا
وَفَتْرَةً وَنَصَبًا .

وَمِنْ مَحَاسِنِ التَّدْبِيرِ وَمَحَامِدِ التَّقْدِيرِ الْحِرْصُ فِي هَذِهِ الْهَيَاكِلِ الْمَجِيدَةِ وَالْبُرُوجِ
الْمَشِيدَةِ عَلَى خَلْقِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَسَجَايَاهُمْ ، لِأَنَّهُ مِنْ صِرَامَةِ النُّظَامِ وَاسْتِقَامَةِ الْأَحْكَامِ
أَنْ يُزَجَرَ كُلُّ مَنْ زَاغَ ، وَانْحَرَفَ ، وَيُرَدَّ كُلُّ مَنْ خَالَفَ وَخَرَجَ ، وَأَنْ يُرَدَّ كُلُّ مَنْ
ضَلَّ وَغَوَى ، وَأَمَّا صَاحِبُ الْهَقُوفَةِ بَعْدَ الْهَقُوفَةِ وَالزَّلَّةِ أُخْتُ الزَّلَّةِ فَجَازَ أَنْ يُقَرَّدَ وَيُعَزَّلَ
وَأَنْ يُقْصَى وَيُبْعَدَ ، إِذْ لَا مَكْثَ لَهُ هُنَاكَ وَلَا لَبَثَ مَعَ اسْتِرْسَالِ الْخَطَرِ وَاتِّصَالِ الْخَطَلِ
فَلِطَلَبِ الْعِلْمِ أَدَابٌ لَزِمَ أَنْ تُرْعَى وَلِلتَّحْصِيلِ أَصُولُ وَجِبَ أَنْ تُحْفَظَ وَاللِّدْرُسِ
قَوَاعِدُ ثَبَتَ أَنْ تُحْصَنَ ، وَأَمَّا مَنْ أَثَرَ الْإِخْلَالَ وَالتَّرُكَ وَحَدَّثَ بِالْإِخْلَافِ وَالتَّكْثُ فَقَدْ
حَبِطَ عَمَلُهُ وَكَانَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، ثَقُلَ ثَمَةُ الْعَثَرَاتِ وَلَا تَلْتَمِسُ الرُّخْصَ ، وَبِالْجَمَلَةِ
فَلَا وَلَا تُطَلَّبُ الْجَوَازَاتُ ، وَلَا يَدْخُلْنَ هَذِهِ الْهَيَاكِلُ إِلَّا مَنْ مَرَّنَ طَبْعُهُ عَلَى الْبَاسِ
وَالْقَسْوَةِ وَرَاضَ نَفْسَهُ عَلَى الْعِزِّ وَالشَّدَةِ .

* * *

وَإِذْ قَدْ عَلَا الْبُتْيَانُ وَشُمَخَتِ الْجُدْرَانُ وَاسْتَتَبَّ النُّظَامُ وَأَجْرِيَتْ الْأَحْكَامُ ، وَجِئِيَ
بِالشُّيُوعِ وَالْأَيْمَةِ وَصَفْوَةِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ ، عَنَانَا أَنْ نَنْظُرَ فِي مَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَرَّدَ مِنْ بَرَامِجٍ
وَمُبَاحِثٍ ، وَهَمْنَا أَنْ نَفْخَصَ مَا وَجِبَ أَنْ يُعْتَمَدَ مِنْ دُرُوسٍ وَمَسَائِلَ ، فَهَذِهِ الَّتِي بِهَا
تَقْوِيمُ أَوْدِ النُّفُوسِ وَنَصَبُ عِمَادِ الْأَفْهَامِ وَمِنْهَا اقْتِدَاحُ زَادِ الْعُقُولِ وَمَلَكَاتِنِ الْأَذْهَانِ .
وَلَمَّا كَانَتْ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ مِنَ الْخَطَرِ وَفِي هَذَا الْمَنْزِلِ مِنَ الشَّرَفِ حَقٌّ أَنْ تَجْمَعَ
خِلَاصَةُ مَا بَلَغَهُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ مِنْ نُضِيجِ وَسُورَةٍ وَجَمَاعَ مَا أَدْرَكَهُ الْفِكْرُ الْإِنْسَانِيُّ
مِنْ عَقْرِ وَصُولَةٍ ، فَتَجَلُّو لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَدَانِعِ الْحِكْمَةِ وَقَلَانِدِ الْفَلَسَفَةِ وَذَخَائِرِ الْأَدَبِ
وَفَرَائِدِ الْعُلُومِ وَنَفَائِسِ الْمَعْرِفَةِ ، وَتَصَرَّفْ هِمَمَهُمْ إِلَى التَّمَرُّسِ بِعِيُونِ الْمُصَنِّفَاتِ

وَالْأَثَارِ وَمَلَاسَةِ فُصُوصِ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ وَمُعَارَكَةِ غُرَرِ الرُّسَائِلِ وَالْأَشْعَارِ
وَأَسْتِقْصَاءِ كُنُوزِ الْمُؤَلَّفَاتِ وَالْأَخْبَارِ .

فَإِذَا طَلَبُوا الْحِكْمَةَ وَالْفَلَسَفَةَ وَجَدُوهَا تَنْتَقِي لَهُمْ الْخَالِصَ مِنْ مَنْطِقِ الْيُونَانِ
وَلِأَهْيَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَطَبِيعِيَّاتِهِمْ وَتَنْتَخِبُ لَهُمُ الْجَوْهَرُ مِنْ جَدَلِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ
وَتَصَوِّفُهُمْ وَاعْتِزَالِهِمْ وَتَنْتَخِلُ لَهُمُ الثُّبَابُ مِنْ تَأْمَلِ الْإِفْرَنْجِ فِي الْوُجُودِ وَالْإِنْسَانِ
وَالْغَرَائِزِ وَالطَّبَاعِ وَالرُّوحِ وَالْمَادَّةِ وَالسِّيَاسَةِ وَالنُّظُمِ .

وَإِذَا أَرَادُوا الْأَدَبَ رَأَوْهَا تَصْنُفِي لَهُمُ الْخِيَارَ مِنْ مَلَاحِمِ الْيُونَانِ وَمَآسِيهِمْ
وَأَسَاطِيرِهِمْ وَمَلَاهِيهِمْ ، وَتَسْتَصْنِفِي لَهُمُ النَّهَائَةَ مِنْ خُطَبِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ
وَبِلَاقَتِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَمَقَامَاتِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ ، وَتَخْتَارُ لَهُمُ الْغَايَةَ مِنْ أَدَبِ الْإِفْرَنْجِ التَّمَثِيلِيِّ
وَالرُّوَانِيِّ وَشِعْرِهِمُ الرُّومَنَسِيِّ وَالرُّمَزِيِّ .

وَإِذَا نَشَدُوا التَّارِيخَ أَلْقَتْ إِلَيْهِمْ أَخْبَارُ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ وَهَدَتْهُمْ إِلَى النُّظَرِ فِي
الْحَوَادِثِ وَعِلَلِهَا وَالْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا وَالْأَحْوَالِ وَبَوَاعِثِهَا وَالْمِلَمَاتِ وَأَصُولِهَا وَالتَّبَدُّلَاتِ
وَبَوَاعِثِهَا .

وَإِذَا رَأَوْهَا عُلُومَ الرِّيَاضَةِ وَالْمُهَنْدَسَةِ وَالْفِيزِيَاءِ وَالطَّبِّ وَجَدُوا الْمُفْتَعَّحَ فِي عَصَارَةِ
مَا بَلَّغَهُ الْأُرُوبَاءُ وَيُؤَيِّنُ وَأَهْلَ الْغَرْبِ عَامَةً مِنْ كَمَالِ عَقْلِي وَرَقِي فِي هَذِهِ الْفَنُونِ
الْجَلِيلَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ .

وَلِلتَّعْلِيمِ مَادَّةٌ هِيَ مَا ذَكَرْنَا بَيِّنَ أَنْ لَهُ رُوحًا لَا تَجِدُهَا مَائِلَةً فِي تَدْوِينِ وَتَصْنِيفِ
وَلَا تَلْفِيهَا قَانِمَةً فِي وَضْعِ وَتَأْلِيفِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ سَارِيَةً فِي مِنْهَاجِ التَّعْلِيمِ وَسَمْتِهِ
مَبْنُوتَةً فِي سُنَنِهِ وَنَحْوِهِ مَنُوتَةً فِي أَسْلُوبِهِ وَرَسْمِهِ ، تَشِفُّ عَنْهَا الْمَادَّةُ وَلَا تَصْرِيحُ
وَتَقَرُّ عَنْهَا الْمُبَاحَثُ وَلَا إِبَانَةُ ، وَدَوَّحُ التَّعْلِيمِ هِيَ الْفِكْرُ الْحُرُّ الطَّلِيقُ وَالنُّظَرُ الثَّاقِبُ
الْحَصِيفُ وَالشُّكُّ الرُّصِينُ النَّزِيهُ وَالْإِبْتِدَاعُ الْمُبْتَكَرُ الطَّرِيفُ ، لِأَنَّ يَنْشَأَ الْمُتَعَلِّمُ نَشْأَةً
الْمُحَاكِي الْمُتَقْتَدِي هُمَةُ التَّمَثُّلِ وَالِاسْتِيعَابِ وَالْوَعْيِ وَإِنَّمَا نَشْأَةُ الْحَاكِكِ الْمُتَقْتَدِي شَأْنُهُ
الْخَلْقُ وَالْإِضَافَةُ وَالِاسْتِنْبَاطُ ، وَلِأَنَّ تَكُونَ الْمَعَاهِدِ مَهْدًا لِلْعِلْمِ وَمَوْزِلًا لِلْمَعْرِفَةِ
فَحَسْبُ وَإِنَّمَا تَضْحِي رُوحًا يَزْهَرُ فِيهِ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي وَيُورِقُ وَيَزْكُو فِيهِ الْفِكْرُ

البشري وَيُشْرِقُ وَتَغِيءُ فِيهِ الْمَعْرِفَةُ الْكُونِيَّةُ وَتَفْتَقُ .

* * *

وَأَمَّا أَنْتِ أَيُّهَا الْمُتَوَشِّحُ لِطَلَبِ الْعُلُومِ وَالْمُنْتَقِمُ لِتَحْصِيلِ الْمَعَارِفِ فَأَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ
يَعْمَتُ شَيْئًا جَسِيمًا وَتَشَدُّتْ أَمْرًا عَظِيمًا ، وَإِذَا أَرَدْتَ نَيْلَ بُقَيْتِكَ وَإِيْثَاءَ سُؤْلِكَ
وَابْتِغَايَ تَحْصِيلِ مُرَادِكَ وَبُلُوغَ قَصْدِكَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْلِكَ مِنْ نَفْسِكَ وَتَحْزِمَ مِنْ أَمْرِكَ مَا
بِهِ تَسْتَطِيعُ مَعَ الْعُسْرِ اصْطِبَارًا وَمَعَ الْجُهْدِ احْتِمَالًا وَمَعَ الْمَشَقَّةِ إِطَاقًا ، لِأَنَّ اقْتِحَامَ
أَغْيَالِ الْعِلْمِ وَاعْتِلَاءَ مَرَاqِي الْفَهْمِ لَا يَتَأْتِيَانِ إِلَّا لِمَنْ ائْتَكَبَ عَلَى الدَّرْسِ ائْتِكَابًا وَانْقَطَعَ
إِلَى الْبَحْثِ انْقِطَاعًا وَانْصَرَفَ إِلَى الْعَمَلِ انْصِرَافًا لَيْسَ بَعْدَهُ ارْتِدَادٌ أَوْ نُكُوصٌ أَوْ إِحْجَامٌ .
وَالْعِلْمُ عَصِيٌّ مُتَابٌ لَنْ تَنَالَ أَقْلَهُ حَتَّى تَمْنَحَهُ مِنْ نَفْسِكَ أَكْثَرَهَا وَلَنْ تُصِيبَ أَيْسَرَهُ
حَتَّى تَهْبِيَهُ مِنْ مُهْجَتِكَ أَوْفَرَهَا وَلَنْ تُحْصَلَ بَعْضُهُ حَتَّى تَبْذُلَ لَهُ رُوحَكَ كُلَّهَا ، وَالتَّابِ
الْأَرِيبُ مَنْ أَدْرَكَ هَذَا فَانْتَفَقَ أَثْمَنَ سَاعَاتِهِ بَيْنَ الْكُتُبِ وَالِدِفَاقِرِ وَأَفْنَى أَنْفُسِ أَوْقَاتِهِ بَيْنَ
الْأَسْفَارِ وَالْمَحَابِرِ حَتَّى صَارَ عَنَاءُ الدَّرْسِ عِنْدَهُ مَتْعَةً وَكَدُّ الْخَاطِرِ لَذَّةً ، وَالْكَئِيسُ
الْجَنِيبُ مَنْ وَصَلَ بَيَاضَ يَوْمِهِ بِسَوَادِ لَيْلِهِ طَلِبًا الْمَعْرِفَةَ وَالِدَّرَايَةَ وَجَمَعَ أَصْنَافَهُ إِلَى
أَسْحَارِهِ نُشْدَانًا لِفَهْمِ وَالضَّلَاحَةِ وَأَفْرَغَ خَاطِرَهُ لِلِاسْتِزَادَةِ مِنَ الْعُلُومِ وَأَخْلَصَ
مِعَتَهُ لِلِاسْتِنَارَةِ بِالْمَعَارِفِ وَجَرَدَ عِيَايَتَهُ لِلِاسْتِيقَاقِ إِلَى تَحْصِيلِ التَّلِيدِ وَالطَّرَافِ ،
وَالذَّكِيُّ الْأَلَمِيُّ مَنْ قَامَ بِشُعَائِرِ التَّعَلُّمِ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَأَدَّى مَنَاسِكَ الدَّرْسِ أَفْضَلَ
تَأْدِيَةً وَرَعَى مَحَارِمَ الْبَحْثِ خَيْرَ رِعَايَةٍ وَأَطَالَ مُجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَأَدَامَ مُتَافَنَةَ الْعُقُلَاءِ
وَأَدَمَّنَ مُلَازِمَةَ الْحُكَمَاءِ .

ثُمَّ إِنَّ الْعِلْمَ مَا زَالَ مِنْكَ مَنَاطُ الثَّرِيَا حَتَّى تَرُوضَ نَفْسَكَ عَلَى مُجَاهَدَةِ التَّفَقُّقِ
يَسْتَعْصِي فِتْنَتُهُ طَبْعًا ذُلُولًا ، وَتُدْرِبُ خَاطِرَكَ عَلَى مُغَالِبَةِ التَّبَرُّزِ يَمْتَنِعُ فَتَذَلُّهُ سَانِعًا
مُنْقَادًا وَتَسْوِسُ طَبْعَكَ عَلَى مُنَاقَاةِ التَّمَكُّنِ يَشْقُ قُتُطُوْعُهُ مُسَلِّسًا مُمْتَنِلًا ، لَقَدْ مَلَكْتَ
إِنَّ مِنْهَا الرِّقَابَ وَلَوِيتَ الْعِنَانَ وَأَخَذْتَ بِالنَّاصِيَةِ ، وَإِذَا أَنْتِ رَاهِبٌ فِي بَيْرِ الْعِلْمِ
مُتَبَلِّلٌ وَسَادِنٌ فِي مَعْبِدِ الْفِكْرِ مُتَزَهِّدٌ وَنَاسِكٌ فِي هَيْكَلِ الْمَعْرِفَةِ مُتَعَبِّدٌ . وَتِلْكَ دَلَالِيلُ
الْوُدُوعَةِ وَبَيِّنَاتُهَا فَأَعْرِفْهَا وَبِرَاهِئِ الْعَبَقْرِيَّةِ وَيَأْتِهَا فَاجْعَلْهَا عَلَى ذِكْرِهَا وَأَتَمِّلْهَا .

العلاقات التجارية بين تونس وأقطار البحر الأبيض المتوسط في القرون : 17- 18- 19.

بقلم : د . علي الشنرفي

يعدّ محمد بيرم الخامس (1840 - 1889) من المؤلفين التونسيين الافذاذ الذين طرّقوا وصف القطر التونسي وصفا شاملا لما فيه من أوضاع تتعلق بخصائص الصناعة والتجارة. لقد تحدث هذا المؤلف عن الصناعات في القطر التونسي فذكر ان اهم صناعات الاهالي هي الفلاحة (1) ومن اعظم مكاسب اهل القطر زيت الزيتون فأما جمعه واستخراج زيتة فهو بيد الاهالي ثم يبيعونه اما للاهالي أو للتجار الأجانب. وأما التجارة فيه خارج القطر فهي بيد الأجانب الا قليلا من الاهالي. كما انه دخل في جمعه واستخراج زيتة قليل من الاجانب عندما استخدمت المعامل بالبخار لاجراج الزيت وهي قليل بل ليس منها الا واحدة في الحاضرة. وهناك قليل من المعاصر على النحو المخترع في أوروبا. والأكثر على النحو القديم الذي صنعه الاندلسيون أو نوع آخر أقدم منه وكلاهما لا يتقن اخراج الزيت من زيتونه. وأما صناعة الشاشية فانها كانت هي عيال اكثر اهل الحاضرة. ومنذ صنعت الشاشية بالمعامل في أوروبا رخصت. وما زال صنّاعها في تونس متمسكين بالآلات القديمة. وهي تكلفها غالية. فما زالت في تناقص الى ان كادت ان تكون مقصورة على أهالي القطر. وقليل من غيرهم. وبقي من حوائيتها نحو ثلاثين اعني الذين يخدمون حقيقة. بعد ان كانت حوائيت هذه الصناعة تبلغ نحو الالف. وبسبب ذلك بقي اكثر الناس في الحاضرة بلا صناعة .

ويوجد من الصناعات في الحاضرة صناعة البلغة وهي نوع من الاحذية رائجة. وصناعة الكنثرة نوعا مما ذكر. وهي رائجة وهي بيد اليهود والافرنج واصحاب صناعة السبايط التي هي نوع مما ذكر افلسوا لأنهم

مازالوا متمسكين بخياطتها على الهيئة القديمة. والناس تركوها وانفوا من جعلها على اسلوب الكنترة بمجرد الاعتقاد الى ان افلسوا ولم يجدوا هاديا يحملهم على مصلحتهم.

وكذلك توجد صناعة العطارين اي الطيب والحرارية اي نساجي الحرير. وصناعتهم متقنة. وفيها بعض رواج. ويصنعون اشياء مخلوطة من الحرير وخيوط الفضة ونوعا من الحرير الصوف المسمى بالمختم. وفي بعض انواعها رغبة في حواضر أوروبا. لو يوجد لها مروج سيما الطيلسانات. ويوجد ايضا صناعة التوارزية اي الخياطين ولهم براعة في خياطة الابريس (الحرير) على أشكال من التوار بديعة في سراويل النساء وغيرها. وكذلك صناعة الحياكة للمنسوجات الصوفية. فيها رواج كبير لأوروبا وغيرها لو تجد المروج لكانت من اعظم اسباب الرفاهية للقطر.

وتوجد صناعة الصاغة. وصناعة السروج ولأصحابها براعة في الطرز في الحرير والفضة والعدس اي قطع من الفضة مموهة بالذهب مثقوبة الوسط ليمسكها خيط الطرز. وكذلك صناعة الخدادة وهي قاصرة. ولمن وفد من الأوروبيين التقدم التام على الأهالي. وكذلك صناعة النجارة اي نحت الأخشاب. ولأهلها براعة فيها. وكذلك البناية وكذلك النقاشة اي نحت الأحجار. وكذلك صناعة طرز الحرير والصوف والخيط والقطن والفضة والعدس على المنسوجات وهي خاصة في النساء. وذن في هذه المدة تقدما بما تعلمن من الأوروبيين حتى صارت تقوم بها عائلات.

وتوجد صنائع للسلاح بأنواعه. لكنها متأخرة. ويوجد معمل للمدافع. وآخر للسفن. وكلاهما معطل. وتوجد معامل كثيرة للكراريس. وكذلك توجد صناعة النسيج للقطن وهي ضعيفة رديئة. وكذلك صناعة تجليد الكتب وهي حسنة. وصناعة النسخ وهي قليلة. وكذلك صناعة نقش حديدية اي النقش في الجص التي هي من ابداع الصناعات التحسينية وهي على الجدران. وكذلك صناعة الدهن أي التلوين. وصناعة الفخارين أي صنع الاواني من الطين. وكذلك نوع يسمى بالجليز مما يلصق على الجدران وعلى اراضي البيوت. ولكن نوعه رديء. ولأهله اقتدار على ايصاله للحسن المعهود في أوروبا اذ كان عندهم قديما احسن منه وانما يحتاجون الى الاعانة...

... ثم توجد بقية الصنائع الضرورية كالبقالين والجزارين والقضاين

والفحامين والحلاقين وغيرها. بحيث يقال ان اغلب الصنائع الحاجية معروفة. ولكنها غير موفية بالاستغناء عن جلب المصنوعات من خارج القطر بحيث من نظر الى لباس اهل المدن ومسكنهم وفرشهم يجد اغلبها من مصنوعات الاجانب. وذلك موجب لفقر المملكة (2).

وقد أخذ توريد مصنوعات الاجانب الى الايالة التونسية يزداد انتظاما لا سيما من فرنسا منذ سنة 1577م. حين اسس ملك فرنسا الثالث قنصلية بتونس لحماية التجار الفرنسيين القادمين من مرسيليا للاستقرار بتونس. وقد منحهم الباي في مدينة تونس وفي أهم المواني التونسية بعض الديار والمغازات لايواء سلعهم. وهكذا منذ القرن السادس عشر وجد بتونس فواصل مكلفون بادارة شؤون أولئك التجار وعائلاتهم وبتمثيلهم امام الحكومة المحلية. (3)

وتعرض الدكتور توفيق البشروش في كتابه الصادر بتونس تحت عنوان: التكوين الاجتماعي البربارسكي والسلطة بتونس في القرن السابع عشر الى ميزات المبادلات التجارية عصرئذ فتحدث المؤلف عن التجارة في الفصل الذي خصصه للمدينة والبحر فذكر ان الايطاليين والكتالنيين والبروفنساليين قد اهتموا خلال القرن السابع عشر بالتجارة مع القطر التونسي. اما اهتمام فرنسا بالبلاد التونسية فقد تميز بالاتفاق المؤرخ في سنة 1665 عندما تم ابرام معاهدة صلح بين فرنسا وتونس حتى تسلم السفن الفرنسية من خطر القرصنة التونسية وأما بخصوص التجار التونسيين فانهم لم يكونوا يترددون على المواني الاوروبية بل كانوا يكتفون باستقبال التجار الاجانب في المواني التونسية لانهم كانوا يخشون الوقوع في الاسر عند النصارى وكان ذلك من الاسباب التي شجعت الهيمنة التجارية البحرية الاوروبية بالقطر التونسي. وخاصة منها التفوق الاقتصادي لتجار مرسيليا فالقنصل الفرنسي بتونس اصبح له تفوق على زميله الهولاندي والانكليزي.

لقد كانت المبادلات التجارية بالقطر التونسي في القرن السابع عشر ميدانا لعبت فيه السلطة دورا رئيسيا لانها كانت تراقب ليس فقط صادرات الحبوب باخضاعها الى الحصول على سراح يتمثل في التسكرة بل كانت السلطة هي الممول الرئيسي في هذا القطاع. وكان احتكار السلطة للبيع للاجانب يمكن من التأثير على الاسعار. وكان نشاط السوق الحرة يتألم من احتكار السلطة للسوق الخارجية. هكذا كان الشأن بخصوص

الانتاج الزراعي اما المتوجات الاخرى كالجلود والشمع فقد احتكرها في لزمات يهود القرنه وبعبارة اوضح كانت الرأسمالية المسيحية اليهودية تراقب اهم شؤون المبادلات التجارية الخارجية.

وكانت القاعدة أن الديوانة تفرض على دخول البضائع ضريبة قدرها 10٪ من القيمة. وتفرض على خروج البضائع ضريبة قدها 5٪ من القيمة. وهو الترتيب الذي كان به العمل في العهد الحفصي. وكانت البضائع الواردة من الولايات العثمانية لا تدفع إلا 3٪ عند دخولها الى القطر التونسي وذلك بداية من سنة 1685 وبلغ الامر ببعض التجار الفرنسيين الى حد التجارة بهذا الامتياز وذلك بان سجلوا تحت اسمائهم بضائع بعض اليهود من تجار القرنه وغيره من البلدان لكي لا يدفعوا على تلك البضائع عند دخولها الى المواشي التونسية الا ضريبة قدرها 3٪ وتصدت السلط التونسية لهذه الخديعة وصار كل تاجر فرنسي يثبت أنه دلس ، فإن الديوانة تعاقبه بدفع غرامة قدرها 14٪ من القيمة وتصادر البضاعة المعنية. وذلك بمقتضى نص معاهدة 10 جوان 1698 بين تونس وفرنسا.

اما بخصوص التجارة التونسية مع الاقطار الاوربية في القرن الثامن عشر(4) فمن المتعارف ان مدينتين كبيرتين رئيسيتين كانتا تتوليان تجارة الايالة التونسية مع أوروبا. وهما مدينة مرسيليا ومدينة ليفورينا. لقد كانت البلاد التونسية تتقبل من الثقلة الآلات الحديدية والمنسوجات كما كانت تتقبل من اسبانيا الاصواف ومن البرتغال الزنجفر وتلك منتوجات لا بد منها للصناعة الشاشية. وكانت هذه المنتوجات تمر من هذين المدينتين مرسيليا وليفورنيا قبل الوصول الى تونس وكذلك كان الشأن بخصوص بضائع اخرى مثل السكر وبن القهوة والابزار من كل صنف. فالبلاد التونسية لم تكن لها بحرية تجارية وهي من أجل ذلك في حاجة الى المرور عبر تلك الوسائط الامر الذي يرفع من كلفة البضائع الموردة.

وكانت البلاد التونسية تصدر من ناحيتها الحبوب والجلود والاصواف والشمع والمتمور وزيت الزيتون. وكانت هذه التجارة خاصة مع مرسيليا مزدهرة في نهاية القرن الثامن عشر. وعلى العموم كانت المنتوجات الموردة الى القطر التونسي لا تعادل نسبتها ما تصدره تونس نحو مرسيليا مثلا وكانت فرنسا في حاجة الى ارسال مبالغ مالية الى تونس لايجاد المعادلة

بين الواردات والصادرات.

وفي هذا الصدد نقدم قائمتين الأولى تهم صادرات تونس الى مرسيليا ويبلغ مقدار ثمنها بالليرة: 4.797.903 والثانية تتعلق بالواردات من مرسيليا الى تونس ويبلغ مقدار ثمنها: 727.987 (6) وذلك نقلا عن مذكرة الاب رينال المولود سنة 1731 والمتوفي سنة 1796 عن تونس في القرن الثامن عشر (7).

| الحجرة التجارية بمدينة مرسيليا : السنة 1787م. قائمة في البضائع التي تم نقلها الى مدينة مرسيليا من مدينة تونس في عام 1787م. | | |
|---|-----------|----------------|
| النوع | الوزن | القيمة بالليرة |
| 1. الشمع الاصفر | | 68.968 |
| 2. سيبب (خصلة من الشعر) | 43.730 | 2.500 |
| 3. الجلد الملح | 6.250 | 121.000 |
| 4. احزمة الصوف | 220.000 | 4.032 |
| 5. التمر | 16.460 | 19.589 |
| 6. الاسفنج | 97.495 | 16.715 |
| 7. الزيت | 27.925 | 2.610.048 |
| 8. عصير عرق السوس | | 5.600 |
| 9. الصوف | 14.000 | 1.451.082 |
| 10. الجلد المدبوغ | 3.671.490 | 8.046 |
| 11. الرياش | 287.215 | 1.075 |
| 12. شحم الغنم | | 2.098 |
| 13. الحناء | 5.245 | 51.865 |
| 14. القمح | 69.155 | 324.621 |
| 15. الفول | | 237.420 |
| 16. الشعير | | 65.548 |
| 17. الدخن: الذرة البيضاء | | 2.200 |
| 18. الجلبان | | 34.500 |
| 19. الارز | 15.000 | 3.000 |
| | | ليرة 4.797.903 |

الحجرة التجارية بمدينة مرسيليا

السنة 1787 م.

قائمة البضائع المنقولة من مرسيليا الى مدينة تونس خلال عام 1787.

الحجرة التجارية بمدينة مرسيليا 1787 م
قائمة البضائع المنقولة من مرسيليا الى مدينة تونس خلال عام 1787 م

| النوع | القيمة باللييرة |
|-------------------------------|-----------------|
| الخزامى | 1872 |
| قلانس | 1100 |
| خشب البنة | 5578 |
| حجر الشب | 1085 |
| لبان جاري | 2013 |
| حشب الصباغة | 5725 |
| بن القهوة | 195 |
| الزنجفر (معدن) | 71771 |
| البقم | 133 |
| المربى | 892 |
| القرفة | 1249 |
| محالج | 4500 |
| الزاج (ملح يستعمل في الصباغة) | 5176 |
| اجواخ | 480 |
| اكفان | 1800 |
| تطلية بالذهب | 13200 |
| دودة القرمز | 44800 |
| خشب فرنانبورغ | 6656 |
| العقاقير | 4401 |
| العرق | 4950 |
| القصدير | 2483 |
| الخزف | 3152 |
| الحديد | 550 |
| الغلال | 3390 |

| النوع | القيمة بالليرة |
|---------------------------------|----------------|
| العفص | 2568 |
| شراب فيه روح الخمر | 6816 |
| الاصواف | 200047 |
| بضائع خردة (بزاوة) بيع اثواب من | 44400 |
| كتان قطن | |
| العسل | 9758 |
| سمك غادس مورة | 208 |
| محارم من حرير | 6264 |
| عطارة | 80 |
| بهار | 480 |
| الراح | 42500 |
| الكاغظ | 2622 |
| الورق | 2040 |
| آلات حديدية حريريات | 50700 |
| السكر | 15000 |
| السكر المرحي | 45800 |
| البخارة، الكبريت | 5171 |
| السكر | 6213 |
| دردي | 3696 |
| الزنجفر | 17912 |
| الزنجير | 23075 |
| الخمير | 1026 |
| خمور أجنبية | 11920 |
| بضاعة النسيج | 1560 |
| | 23000 |
| الجملة ليرة : | 727.987 |

وتحدث حسن حسني عبد الوهاب عن علائق تونس بالخارج في القرن الثامن عشر فذكر ان علائق الايالة التونسية كانت مدة حمودة باشا مع الممالك الاجنبية حسنة. فقد حدثت في ايامه الثورة الفرنسية الكبرى سنة 1203 هـ/1789م. ثم استولى نابليون الاول فكان بينه وبين حمودة باشا مواصلات ومهاداة. وقبلت تونس نائب دولة الدانمارك وجددت معاهدات التجارة والسلم مع اسبانيا وهولاندة والولايات المتحدة الامريكانية. (8)

اما تشجيع حمودة باشا التونسيين على تولي شؤون التجارة الخارجية فقد تمثل في انه اعطى رخص تصدير الحبوب او الزيت لبعض التونسيين وهؤلاء يبيعونها بدورهم... لغير اهل المملكة من التجار... فيحصل ربح للتجار التونسيين من تلك العملية. (اتحاف، ج.7، ص: 96؛ والسبب في ثروة هذا الوزير (يوسف صاحب الطابع) هو التجارة خارج الايالة والغزو في البحر وله سفن كثيرة يستعملها في الغزو ويحمل فيها متاجره للبلدان. وكان تسريح الحبوب والزيت للخروج غير منضبط في ذلك العصر واهل المملكة لا يدفعون سراحا على ما يخرجونها منها وانما يدفع السراح غير اهل المملكة من التجار لما يقتضيه ذلك الحال من الثمن: وهذا الوزير لا يدفع شيئا على اخراج ذلك مع كثرته حتى كاد ان ينحصر فيه المتجر خارج الايالة لا سيما صوف الشاشية الفاخرة يومئذ وغالب تجارتهم وقتئذ صوف الشاشية والحريز والقرص والملف والحديد واخشاب البناء وغير ذلك مما تحتاجه البلاد وهي يومئذ لم تصل الى درجة الترف والسرف.

اما اسباب عناية التجار التونسيين بالتجارة الخارجية فيمكن تلخيصها فيما يلي:

- اعطاء الباي رخص تصدير الحبوب أو الزيت لبعض التونسيين وهؤلاء يبيعونها بدورهم لغير اهل المملكة من التجار... فيحصل ربح للتجار التونسيين من تلك العملية.

- اعفاء اهل المملكة من دفع السراح المقرر على تصدير الحبوب والزيت من تونس... وانما يدفع السراح غير اهل المملكة من التجار.

- تخفيض الباي لمعلوم الجمرك على التجار التونسيين فيما يتعلق بالبضائع التي يستوردونها من فرنسا.

- ما نتج عن الاحتكاك بين التجار الاجانب والتونسيين من تأثير ايجابي (علم طرق المهنة واساليبها).

نتيجة لتلك الطرق التشجيعية وللخبرة التي حصلت للتونسيين أصبحت التجارة الخارجية محصورة في غالبيتها في يد الباي ووزيره وبعض الضباط والتجار الأقوياء.

يقول الطبيب فرانك « Frank » في كتابه (وصف البلاد التونسية، ص: 83). ان التونسيين العاملين في قطاع التجارة الخارجية أصبح عددهم يفوق المائة والخمسين تاجرا كبيرا... ويصدر من الايالة التونسية القمح وزيت الزيتون والصوف والخضروات المجففة (زبيب، تين) ويورد الى الايالة التونسية من مرسيليا بَن القهوة والسكر والقمشة والحراير وصوف اسبانيا والزنجفر (معدن يدهن به الحديد ليسلم من الصدأ) ومختلف اصناف الالبهار.

وفي عهد حمودة باشا تمرس التونسيون بالعمل في التجارة الخارجية ولم يقتصرُوا على تصدير الانتاج التونسي او استيراد البضائع الاجنبية من الخارج وهم ببلادهم بل صاروا يؤمون البلدان الاوربية بأنفسهم للتجارة... وهو امر مستحدث في الايالة التونسية. واهم الخصائص التي اتصفت بها سياسة حمودة باشا التجارية مع أوروبا هي:

- فتح باب التصدير: الحبوب وخاصة القمح الى أوروبا (اول من سمح ببيع القمح الى أوروبا بصفة رسمية ولكن بكميات قليلة وفي فترات متقطعة هو علي باي والد حمودة باشا) كان يبيع الحبوب الى أوروبا يتم على طريق التجار والشركات الاجانب في تونس.

- ايجاد اسواق واسعة ومتزايدة للانتاج التونسي بأوروبا.

- تجنب الباي لاسباب الانكماش في هذا المجال: تحاشى الباي الدخول في حروب مع الدول الاوربية.

اما الدول الاوربية التي كانت لها علاقات تجارية مع تونس فهي: فرنسا وبرطانيا واسبانيا وبعض الدويلات الايطالية وامريكا والدانمارك والسويد والبلاد الألمانية.

ولما تولى حمودة باشا الحكم كانت فرنسا وبريطانيا تستأثران بامتيازات تجارية هامة بتونس. منها انهما كانتا لا تعدفعان من الضرائب الجمركية الا 3٪ مقابل 5٪ تدفعه بقية الدول الاجنبية بخصوص المواد الموردة. فتونس كانت تورد عدة اصناف من السلع خاصة منها الصوف الاسباني لصنع الشاشية والبن والزيت والحريير.

... بالنسبة الى اسبانيا استمر وضعها التجاري مع تونس كما كان قبل عهد حمودة باشا وهو يتمثل في شراء اسبانيا للتن التونسي بصفة خاصة.

ويذكر مَجِيل Maggill الذي زار تونس سنة 1809 ان تجارة الولايات المتحدة الامريكية مع تونس نشيطة: وان بن او قهوة المارتينيك المستورد من امريكا هو اكثر راجا في تونس من بن او قهوة مَحَا المستورد من الجزيرة العربية.

إن اهم ما كانت تصدره تونس الى دول المشرق الاسلامي الشا شية والحبوب والزيوت وكذلك السكر المستورد من القارة الامريكية خاصة من هافانه Havana وما تستورده تونس من تلك البلدان يتألف من القطن والحلي المرصع بالالماس وحجر الشب ومن الجزيرة العربية كانت تونس تستورد البن الحجازي.

اما فيما يتعلق بسياسة حمودة باشا في تونس والمبادلات التجارية مع الدول الاجنبية فان المعاهدات التي ابرمها مع الدول التي تهمة هي معاهدات كانت ترمي الي مصالحه الدول لمصلحة اقتصادية وسياسية (9). ان سياسة حمودة باشا تلك افادت التجارة التونسية الخارجية واعطت هيبة للدولة في الخارج.

ان عقد تلك المعاهدات منع العديد من الدول الاوروبية افضى في النهاية الى نقصان في اعمال القرصنة التونسية وقد عوضت تونس ذلك النقص بنشاط تجاري قوي مع الخارج.

... اما فيما يتعلق باللغة التي تبرم بها هذه المعاهدات فقد كانت التركية ولغة الدولة الاجنبية المتعاقدة مع تونس (10). وهذه المعاهدات هي التالية:

- معاهدة ابرمت مع فرنسا يوم 27 اوت 1800 تنهي حالة الحرب القائمة بين البلدين بسبب غزو بونابرت لمصر امضى عليها حمودة باشا وقنصل فرنسا دوفواز.

- معاهدة ابرمت مع فرنسا يوم 23 فيفري 1802 امضى عليها حمودة باشا وقنصل فرنسا وهي تؤكد انتهاء الحرب وترجع العلاقات كما كانت بين البلدين مع تعريضها.

- معاهدات عقدت مع اسبانيا في جانفي 1791 وعين بمقتضى هذه

المعاهدة قنصل لاسبانيا بتونس (خزينة وثائق الدولة التونسية، ملف رقم 705 كرطون 254).

- البندقية: عقدت معها معاهدة واحدة في 2 افريل 1792.

- كرسية: عقدت معها معاهدة صلح في اواخر سنة 1795.

- الولايات المتحدة الامريكية: عقدت معها معاهدة في 24 اوت 1797 وعين بمقتضاها قنصل للولايات المتحدة الامريكية بتونس ونقحت تلك المعاهدة في 26 مارس 1799 وفي سنة 1805 حاولت الولايات المتحدة الامريكية نقتيح تلك المعاهدة ثانية.

صقلية: عقد حمودة باشا معها صلحا بواسطة قنصل بريطانيا العظمى بتونس في بداية صائفة سنة 1799 وجددت تلك المعاهدة سنة 1812 ونقحت مرة اخرى سنة 1813.

- البرتغال: عقدت معها معاهدة أولى سنة 1799 وثانية في 16 اكتوبر 1813.

- نابلي: عقدت معها معاهدة صلح في اوائل سنة 1800.

- سردينيا: عقدت معها معاهدة في عام 1800.

- الدانمارك: في شهر جوان 1800 تازعت العلاقات بين تونس والدانمارك لاسباب تجارية وبلغت حد اشعار قنصل تلك الدولة بوجوب مغادرة تونس واستعداد الطرفين للقتال. <http://www.arsabeg.net> حمودة باشا بسبب اعداده لحرب انجازائر وهو الهم عندئذ قبل الصلح مع الدانمارك بواسطة صاحب الطابع وانعقد الصلح في نوفمبر 1801 (خزينة وثائق الدولة التونسية، ملف رقم 741 كرطون رقم 257 رسالة من قبطان الاسطول الدانماركي الى حمودة باشا 16 اوت 1800).

- بريطانيا: وقع حمودة باشا معاهدة مع بريطانيا بتاريخ 2 ماي 1812

ومعاهدة ثانية سنة 1813.

- عقد حمودة باشا معاهدين مع كل من هولندا والسويد حوالي سنة

1807. وعقد كذلك معاهدات مع تسكانة وراغوصا ومع معالك البابا.

اهم القناصل المعتمدين لدى حكومة حمودة باشا: قناصل فرنسا واسبانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وهولندا والدانمارك

والسويد.

ان معظم القناصل والممثلين الاخرين كانت نشاطاتهم تكاد تنحصر في حماية مصالح بلدانهم التجارية مع تونس.

القناصل والممثلون الغربيون في تونس في عهد حمودة باشا: اسبانيا، بتافيا، بريطانيا، البندقية، تسكانة، الدانمارك، راغوصا، روسيا، سردانيا، السويد، صقلية، فرنسا، ليفورنة، نابلي، النمسا، هولندا، الولايات المتحدة الامريكية.

وخلال النصف الاول من القرن التاسع عشر تكاثر عدد الاوروبيين بسبب مقدم المالطين والصقليين الذين خرجوا من بلادهم وقصدوا البلاد التونسية طلبا للشغل. وبلغ في سنة 1834 عدد الاوروبيين ثمانية الاف بالايالة التونسية وارتفع الى 12.000 سنة 1856 والى 15.000 سنة 1870.

وخلال القرن التاسع عشر انقلب التجار الاوروبيون الى اعوان تسرب تجاري عميق بدل تماما تيار المبادلات التقليدية وذلك بفضل اعادة السلام الى أوروبا وانهاء القرصنة بالبحر المتوسط وخاصة بالنمو الصناعي في أوروبا الغربية. وكانت السفن الاجنبية تأتي الى الايالة التونسية باحثة عن المواد الأولية والبضائع الغدائية وكانت تحمل اليها في المقابل المتوجات المصنعة التي كانت تستهوي الاهليين لجدتها ولتفاهة ثمنائها. وهكذا اخذت الواردات تتزايد كل سنة. ومن ذلك ان ميناء جلق الوادي وهو اول ميناء في تونس قد بلغت به الواردات ضعف حجم الصادرات. وفي اقل من خمس عشرة سنة تضاعفت المبادلات اذ كانت 12 مليونا وهو معدل سنوات 1846 - 1848 الى 24 مليونا في سنوات 1860 - 1862. وساعدت هذه النزعة على تدهور الصناعة الاهلية واصيبت هيئات الحرفيين الواحدة تلو الاخرى بالعجز عن النشاط بينما اخذت الاصواف الانكليزية والاقمشة والحريز من فرنسا تحتل مكان الاقمشة الاهلية وذلك في داخل البلاد وفي المدن. وكان توريد الات الحديدية والاسلحة والحلي من أوروبا يجلب الضرر للصناع التونسيين المشتغلين بالحديد والمعادن.

وكانت الايالة التونسية سوقا سهلة للمنتوجان الأوروبية وكان نظام الامتيازات القنصلية الذي اكدته معاهدات مختلفة في القرن التاسع عشر

يفرض على الباى الابقاء على ضريبة قصوى قدرها 3٪ حسب قيمة البضاعة على كل المنتوجات الموردة. واضطرت الحكومة التونسية بحثا عن موارد جديدة الى ان توظف الاداءات على صادرات البلاد بحيث انه وجد نظام قمرقي غير منطقي يوظف ضريبة قدرها يتراوح بين 8 و25٪ على المنتوجات التونسية بينما يترك السوق الوطنية بدون حماية.

في سنة 1860 كانت فرنسا وانتقلرة وايطاليا هي البلدان الثلاث التي تقوم بالمبادلات التجارية مع الايالة التونسية بنسبة 92٪ وكانت سفن هذه الاقطار الثلاثة تقوم تقريبا بكامل التجارة الخارجية التونسية وكذلك النقل البحري بين مختلف مواني الايالة التونسية. وفي الوقت نفسه كانت هناك بعض السفن اليونانية والاسكندنافية والنمساوية والعثمانية تأتي الى المواني التونسية (تونس وحلق الوادي ومواني الساحل).

وكانت السفن الايطالية اكثر عددا ومعظمها كانت قوارب بسيطة تأتي من صقلية. اما البواخر الفرنسية والانقليزية فكانت بواخر ذات حمولة متوسطة وفي سنة 1860 كانت شركة طواش Touache تقوم بإرسال بواخر اسبوعيا بين مرسيليا وتونس مرورا من عنابة. اما البواخر الانقليزية فكانت تتولى السهر على نشاطها شركتان بحريتان انقليزيتان والارساء يقع بحلق الوادي. اما الشركة الايطالية روباتينو Rubattino فقد كانت تقوم برصلة نصف شهرية بين جنوة وكافلياري وتونس وتقوم شركة بحرية ايطالية اخرى بوصلة نصف شهرية بين بالارم وتونس.

وفي الفترة بين 1861 وسنة 1865 كان ميناء حلق الوادي يتقبل سنويا زيارة 600 باخرة. وعمليات التصدير بنسبة 44٪ اما المواني التونسية الاخرى وخاصة مواني الساحل، سوسة والمنستير والمهدية فكانت تستعمل لتصدير الزيوت وكذلك الامر بالنسبة الى ميناء صفاقس الذي كان يصدر الزيوت وكذلك الحبوب اما ميناء جربة فكان يصدر الاسفنج.

وكان التجار من مدينة تونس يبعثون نوابهم الى مدن الساحل لجلب زيوت الساحل لتصديرها الى مرسيليا وكذلك لجلب تمور الجريد ولجلب الاصواف والجلود لتصديرها. وكان تجار مدينة تونس يوردون من فرنسا المجوهرات والعطورات وبضائع الترف والنسيج الحريري الرفيع وبضائع

الصوف والسكر وبن القهرة والشموع والالات الحديدية والنحاسية والخور والكحول.

وكان التجار من اهل جنوة مثل التجار الفرنسيين يقتنون من تونس الحبوب والزيوت. اما الانقليز فكانوا يقتنون القليل من المنتوجات التونسية وتجار الانقليز اختصوا ببيع ما يصدرونه من بلادهم مثل قطن النكشاير (11).

رسوم جمركية على الصادرات والواردات للايالة التونسية (12)

الواردات : ان كل ما يورد الى الايالة التونسية يدفع عليه ضريبة قدرها 3٪ باستثناء الخمر والمشروبات الكحولية التي تدفع ضريبة قدرها 10٪ وكذلك باستثناء التبغ والملح لان تجارتها ممنوعة وهي من مسمولات الحكومة دون غيرها.

الصادرات : زيت الزيتون يدفع ضريبة قدرها 5 ريالات على خروج مقدار 16 كيلو غرام زيتا.

القمح يدفع ضريبة قدرها 20 ريالاً و 16/5 على كل قفيز يحوي 6 هكتوليترات.

الشعير يدفع ضريبة قدرها 10 ريالات و 16/5 على خروج كل قفيز يحوي 6 هكتوليترات.

الخضروات يدفع ضريبة قدرها 9 ريالات على خروج كل قفيز يحوي 6 هكتوليترات.

الشمع الاصفر يدفع ضريبة قدرها 50 ريالاً على خروج كل قنطار يحوي 50 كيلو غرام.

السمن (الريدة المملحة) يدفع ضريبة قدرها 5 ريالات على خروج كل

قنطار يحوي 50 كيلوغرام.

صوف الغنم يدفع ضريبة قدرها 22 ريالاً على خروج كل قنطار يحوي 50 كيلوغرام

الجلود يدفع ضريبة قدرها 12 ريالاً و 16/5 على خروج كل قنطار يحوي 50 كيلوغرام.

التمور يدفع ضريبة قدرها 25 ريالاً على خروج كل قنطار يحوي 50 كيلوغرام.

الاسفنج والخطبوط يدفع ضريبة قدرها 33٪ من القيمة.

القطن يدفع ضريبة قدرها 4٪ من القيمة.

الثيران يدفع ضريبة قدرها 5 ريالات على كل رأس.

الخرفان يدفع ضريبة قدرها 5 ريالات على كل رأس.

الاباريز والتوابل والعطريات يدفع ضريبة قدرها 9 ريالات على كل 50 كيلوغرام.

اما تصدير الخيول والبغال والأحمرة فهو ممنوع بسبب النقص الملموس بالأيالة في خصوصها.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

الريال التونسي ينقسم إلى 16 خروبة فضة.

والملاحظ بخصوص الصادرات ان حجم مبلغها نقص عن حجم مبلغ الواردات بما قدره: 2.604.410 من الفرنكات وذلك لأن المجموع العام لمبلغ الواردات كان 18.578.218 من الفرنكات كما هو مفصل من القائمة السابقة بينما الامر كان في القرن الثامن عشر على العكس من ذلك لان البضائع المصدرة الى مرسيليا سنة 1787 م. وصلت الى مبلغ قدره 4.797.903 في حين لم تبلغ الواردات من مرسيليا في السنة نفسها الا 4.797.903 في حين لم تبلغ الواردات من مرسيليا في السنة نفسها الا 727.987 ليرة فقط (1).

انظر اعلاه : ص: 4.

قائمة الواردات بيميناء خلق الوادي خلال عام 1865
 نقلا عن كوبيزول، مذكرة مختصرة عن الولاية التونسية
 1867 - ص. 76 - 77.

| نوع البضائع | انقلتره ومالطة | النمسا | بلجيكا | اسبانيا | فرنسا والجزائر |
|----------------|-------------------|---------|--------|---------|-------------------|
| اسلحة | 2.500 | | | | 412.400 |
| مجوهرات | | | | | 337.100 |
| اخشاب | 16.000 | 230.650 | | | 81.400 |
| بن القهوة | 6.400 | | | | 219.922 |
| مسامير وحدائد | 72.000 | | | | 365.934 |
| اجواخ | 4.000 | | | | 358.000 |
| فحم حجري | 249.480 | | | | 4.840 |
| صوف اسبانيا | 110.000 | | | | 19.782 |
| مواد صناعية | 25.000 | | | | 39.658 |
| سعادن | 190.100 | | 840 | | 1.514.500 |
| عطارة | 217.500 | | | | 71.120 |
| قرطاس | 2.950 | | | | 101.480 |
| جلود مدبوغة | 18.200 | | | | 465.764 |
| حرير نسج حريري | 441.700 | | | | 1.381.948 |
| مواد غذائية | 77.000 | | | | 233.750 |
| سكر | 31.100 | | | | 818.540 |
| تبغ | 61.000 | | | | 126.352 |
| صبغة | 167.500 | | | | 309.707 |
| قماش | 1.684.500 | | | | 430.500 |
| خمور وكحول | 100.200 | | | 27.400 | 357.866 |
| بضائع مختلفة | 240.500 | | 16.860 | 6.370 | 1.951.446 |

| نوع البضاعات | اليونان | ايطاليا | السويد | طرابلس | القيمة الكلية لكل بضاعة بالفرنك الفرنسي |
|----------------|---------|-----------|---------|--------|---|
| اسلحة | | 1.200 | | | 416.100 |
| مجوهرات | | 25.000 | | | 362.100 |
| اخشاب | | 30.000 | | | 1.004.410 |
| بن القهوة | | 54.000 | 645.560 | | 280.922 |
| مسامير وحدائد | | 10.000 | | | 459.094 |
| اجواخ | | 16.000 | 11.160 | | 378.000 |
| فحم حجري | | | | | 254.320 |
| صوف اسبانيا | | | | | 235.379 |
| مواد صناعية | | 105.000 | | | 251.408 |
| معادن | | 186.750 | | | 2.879.558 |
| عطارة | | 1.174.118 | | | 298.120 |
| قرطاس | | 9.500 | | | 118.530 |
| جلود مدبوغة | | 14.100 | | | 495.264 |
| حرير نسج حريري | | 4.800 | | | 2.336.396 |
| مواد غذائية | | 512.748 | | 6.500 | 534.900 |
| سكر | | 221.500 | | | 1.057.236 |
| تبغ | | 207.596 | | 2.650 | 190.074 |
| صبغة | | 2.652 | | | 504.907 |
| قماش | | 19.450 | | | 2.921.800 |
| خمور وكحول | | 791.000 | | 8.250 | 1.044.426 |
| بضائع مختلفة | | 551.460 | | 15.800 | 2.554.976 |
| | 7.500 | 327.200 | | | |
| المجموعة | | | | 5.600 | |
| | | 4.266.431 | | | 18.578.218 |

قائمة الصادرات من ميناء الوادي خلال سنة 1865
نقلا عن كوبيزول، ص: 78.

نوع البضائع :

قيمة البضائع حسب كل بلد يقع اليه التصدير

| نوع | انقلترة ومالطة | فرنسا والجزائر | ايطاليا | القيمة الكلية لكل بضاعة بالفرنك الفرنسي |
|--------------|-------------------|-------------------|-----------|---|
| انعام | 216.700 | 900 | 89.300 | 306.900 |
| قلانس | 1.012.500 | 481.500 | 73.250 | 1.567.200 |
| حبوب | 26.700 | 237 | 102.100 | 129.037 |
| قطن | 5.100 | 8.661 | 134.852 | 148.613 |
| تمور | 27.938 | 143.318 | 87.190 | 258.446 |
| اسفنج | 100 | 45.024 | = | 45.124 |
| زيت الزيتون | 4.884 | 2.540.082 | 38.517 | 2.583.483 |
| صوف | 2.002 | 453.949 | 844.339 | 1.300.290 |
| جلود البقر | 24.480 | 225 | 56.000 | 80.705 |
| جلود الخرفان | 4.464 | 13.256 | 89.000 | 106.720 |
| جلود المعز | 100 | 1.395 | 2.104 | 3.799 |
| قمماش تونسي | 230.000 | 111.000 | 111.000 | 451.000 |
| بضائع أخرى | 1.123.975 | 6.325.641 | 1.543.025 | 8.892.641 |
| المجموع | 2.123.975 | 10.125.188 | 3.169.677 | 15.973.808 |

- (1) - انظر : محمد بيرم الخامس، القطر التونسي في صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار، بيت الحكمة 1989، ص: 361 وما بعدها.
- (2) - انظر توفيق البشروش، المرجع نفسه، ص: 92 وما بعدها.
- (3) - نفس المرجع
- (4) -
- (5) - انظر مصطفى كريم / القطر التونسي قبيل الحماية (باللسان الفرنسي) ط 1973 ج 2 ص 71 وما بعدها/
- (6) - انظر : المجلة التونسية (باللسان الفرنسي) عدد : 43 (1948) ص : 131 - تقديم مارسيل ايعيريت لمذكرة الاب الشماس رينال.
- (7) - انظر : اسفله ص : 16.
- (8) - ح. ح. عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط. 3. ص. 159.
- (9) - انظر رشاد الامام (سياسة حمودة باشا في تونس : 1782 - 1814 منشورات الجامعة التونسية 1980 / ص 406 414.
- (10) - انظر : خزينة وثائق الدولة التونسية ملف رقم 705 كرطون 254.
- (11) - انظر : قانياج، اصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية، (1861 - 1881) ط، 1959.
- (12) - انظر شارل كوبيزل، مذكرة مختصرة من الايالة التونسية، 1867 - ص. 46 - 47 - 59.

التراث والحاضر

بقلم : عبد الكريم الوسلاتي

تعد اشكالية التراث من أولويات إهتمام الفكر العربي المعاصر بنقها اصطلاح عليه بعصر النهضة وتجد لاستمرارها وحضورها بأكثر الحاح وحدة تفسيراً في التحولات والمستجدات التي كان لها دورها في تبلور مواقف من قضايا قديمة حاضرة في الآن المعاصر توجه مسلكيات الناس وتحدد خطوها واقعياً وشعورياً إنها " مسائل التراث " ونحن إذ نطرح ذلك سنحاول معالجة الاشكالية بالوقوف أولاً على مصطلح " التراث " نظراً لما يحفّ بهذا المصطلح وغيره من المصطلحات من لبس وغموض قد يصل أحياناً إلى حدّ تحمّل اللفظ الواحد أكثر من دلالة لعلها خاصية اللغة العربية وهو ما تفضّل إليه محمد عابد الجابري في كتابه " بنية العقل العربي " وقد يحيلنا مفهوم التراث إلى مفاهيم محورية رئيسية نقيضة أحياناً ومتقاربة أحياناً أخرى مثل : المعاصرة والايديولوجيا والأصالة ...

وعلى هذا الأساس فإنّ الوقوف على تحديد المفاهيم في إشارة هذه المسألة يساعد بدرجة كبيرة على تجلّي الحقائق ونزع الاغلفة الملفوفة حول ألفاظ مفاتيح لسلوك معرفي خال من العوائق المعرفية التي غالباً ما تقع في طريق الباحثين .

نقرّ بدءاً أنّه من الصّعب الوصول إلى تحديد مفهوم جليّ لمفهوم التراث عند بعض الباحثين ممّن نصّبوا أنفسهم حماة للقيم الأصيلة والتراث العربي الإسلامي أمام زحف القيم المادية الوافدة (انظر مواقف عبد الحليم محمود، محمد البهي، محمد الغزالي ، التيار السلفي ..) إلا أنّه ولئن غاب مفهوم التراث لدى التيار السلفي فإننا سنحاول تلمّس تحديد لهذا المفهوم على ضوء الدراسات الحديثة التي حاول أصحابها على

قلّتهم الكيفيّة والنوعيّة معالجة الاشكالية وفق حدّ أدنى من الموضوعيّة العلميّة الجادّة في مجال الأبحاث التراثيّة التي تحاول أن تصل الماضي بالحاضر أملا في مستقبل مشرق مكتفين بالوقوف على أبرز أقطاب هذا المنحى كحسن حنفي والجابري وعبّد الله العروي وبرهان غليون وهشام جعيط ، غير أنّ اقتصرنا على هذه المجموعة وخاصة حنفي والجابري يستند إلى مشروعيهما النظريين وسعة اطلاعهما على المناهج والمدارس المختلفة في فروع المعرفة ونحن إذ نطرح هذه الاشكالية مفهومنا وتنزيلا في الواقع تجد عدّة أسئلة مشروعيّتها للطرح : ففي أيّ إطار يتبجّل الاهتمام بمسألة التراث ؟ وما هي الآليات المعتمدة في تفكيكه ؟ وما هو الأصل الجامع بين تلك المفاهيم ؟

لا شك أنّ إثارة هذا السؤال تأتي إجابة ملحة عن سؤال النهضة المقلق إثر صدمة الحداثة في القرن التاسع عشر وتغلغل الوافد الدخيل في مجتمعاتنا عسكرياً واقتصادياً وثقافياً في واقع مهزوز مأزوم لم يجد غير الالتجاء إلى التّراث للإحتماء والتّأسي في وقت بقيت فيه ظاهرة المثاقفة معاناة عضيبية تتأكد يوماً بعد آخر لكونها استحالت أوكاد أن تتحوّل إلى تركيز للتّعبية بالنّسبة للمركزيّة الحضاريّة الغربيّة صناعة وتكنولوجيا ، وتوجّهت الهمم إلى الالتحاق بالمدينة ومجر الأرياف مما أثار سلباً على التوازن السكاني فضلاً عن انهداد الأسرة وهشاشة العلاقة بين الرجل والمرأة وانعكاس كل ذلك على ثنائي قيم التراث والحداثة ليتساق هو الآخر مع تذهب جديد وتحيز بغبي هشّ لم يزد الأوضاع إلّا التصاقاً بقيم الكراهة والحدق تاصيلاً طال أفراد الحي الواحد والقرية الواحدة بل حتى الأسرة الواحدة بين راديكالي وتقدمي بين يميني ويساري ومحليّ وقطري وقوميّ وأممي لتغيب قيم الحرية والكدر والانجاز والعدل وتتصدّع قيم المصالحة ويفيّب الاختلاف البناء والتنوّع الايجابي في إطار الوحدة المشروعة ليعلن كل عنصريّته وعشائريّته جذبا للخلف وإعاقة للحركة والفعل الحضاري ...

إن هذه الحقيقة الشاحبة المكشورة لم تقف عند هذا الحد بل انعكست على مستوى

الدول بين حامية للقومية ومحامية للإسلام وحامية للإشتراكية وحامية لليبيرالية ومدافعة عن اقتصاد السوق ، وحامية لهذا الكل وإن أعلنت رسمياً انتعاعها لكتلة عدم الانحياز التي انحسب دورها أو كاد في ظل النظام العالمي الجديد وانتهاء الحرب الباردة ومن هذا المنطلق المعقد طرحت وتطرح قضية الأمة بالحاح لتأخذ تسميات مختلفة - الأمة العربية - الأمة العربية الإسلامية - فكان الاهتمام بالتراث اهتمام بالبدائل الممكنة مشخصة في تيارات الفكر العربي المعاصر الثلاث :

- التيار السلفي

- التيار التاريخي النقدي

- التيار التوفيقي المزاج بين الأصالة والمعاصرة

إضافة إلى أن التيار الثقافي القومي الليبرالي لبرهان غليون والتيار الماركسي (1) قبل الولوج إلى الإجابة عن هذه الإشكالية يدعونا منطق البحث إلى محاولة الوقوف عند تحديد مفهوم التراث وأن كنا ذكرنا صعوبة تحديده سابقاً لما أحاط به من المعاني والتأثيرات تحت وطأة الحضارة الغربية ومصطلحاتها (2).

مصطلح التراث :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

إذا رجعنا إلى المعاجم العربية القديمة لابن سيدي وابن الأعرابي وإسان العرب لابن منظور في مادة وِث استغنينا الترادف بين الارث والورث فقد قال ابن منظور الورث والميراث في المال والارث في الحسب وهو أقرب إلى الميراث الثقافي عندنا اليوم لكون الحسب هو مفاخر الآباء وشرف الفعال التي يرثها الأبناء عن الآباء وقد وردت كلمة التراث في القرآن الكريم في قوله تعالى « ويأكلون التراث أكلاً لما » (3) كما وردت في السنة بمعنى الميراث في دعاء الرسول : « ولك ربّي تراثي » (4)

قال أحمد بن حنبل التراث هو الميراث وجاء في القرآن للدلالة بصفة عامّة على الميراث الديني والثقافي فقد ورد في سورة مريم قوله تعالى : « يرثني ويرث من آل يعقوب ... » (5) وورد في سورة فاطر قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين

اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله " (6) وفي آيات أخرى ...

وقد خاطب أبو هريرة الصحابة بقوله : " انتم هنا وميراث محمد صلى الله عليه وسلم يوزع في المسجد " والمقصود ميراث النبوة دنيا وعقيدة .

... وإجمالاً لا يطلق التراث على وراثته المال والحسب والعقيدة والدين والثقافة والعلم والآداب والفنون وسائر الميزات المعنوية والمادية (7) فحسب بل يشمل الوحي الالهي قرانا وسنة فمتى وقع تبني هذا التعريف الشامل للتراث فلن يكون التعامل معه بشكل موحد باستثناء الوحي الالهي الذي لا يقبل الانتقاء

والاخضاع للواقع اخضاعاً يجرده من قدسيته أو التوظيف لمصلحة دينائية خاصة أو عامة وهذا لا يعني عرقلة للتطور لكونه إطاراً يحكم الحياة لتتحرر داخله :

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " (8) وفي حين أن الناتج التراثي البشري خاضع لقاعدة الانتقاء والتوظيف وفق ما تمليه الحاجة وضغط الواقع وقد ذكر أكرم

ضياء العمري معرفاً التراث بقوله : " هو الهوية الثقافية للأمة " (9) ليلتقي مع كثير من المفكرين كمحمود شاكر الذي يؤكد على هذا المعنى فيقول : " التراث بمعناه

الحقيقي هو الانتماء ولا أكون موجوداً إلا به وألذين يريدون فصلنا عن تراثنا لا يحبون التراث ولا اللغة العربية ولا العقل العربي وينظرون إلى التراث الذي هو

الانتماء على أنه تخلف " - إن هذا يحيلنا إلى ضرورة الإشارة إلى الاختلاف بين مصطلح التراث في الحضارة الغربية المعاصرة (legacy) الذي يستغرق مجموع

المخلفات الحضارية والثقافية والدينية المقدس وغير المقدس واخضاعها جميعاً إلى عملية الانتقاء والتراث في بنية الحضارة العربية الإسلامية لأننا نخشى التماهي مع النموذج الغربي

بدءاً من المصطلحات التي تحتم علينا تحريماً واضحاً في الألفاظ المستعملة والمناهج المتبعة لتشكيل بنية عقلية أصيلة متميزة قادرة على التفاعل مع المنظومات المعاصرة

دون قطع الصلة مع جذورها وموروثها فالحاجة اليوم أشد للتواصل الحضاري والثقافي ، وحسبنا أن النهضة الحديثة أو محاولاتها على الأقل في العالم العربي لم

لم تواكبها رؤية واضحة للتراث وأحيائه لعل ضغط الواقع يدفعنا بأكثر الحاح إلى طرحها بجدية كشرط من شروط النهضة لأنّ التراث هو الهوية والأرضية التي نقف عليها جميعا ، ومن خلالها تتحدد وحدة حركتنا واتجاهنا نحو الهدف وتعطينا الحوافز الروحية والمعنوية اللازمة للتقدم الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي ولا يفوتنا في الأثناء أن نشير إلى الاختلاف الجوهرى بين حركة أحياء التراث في الشرق والغرب فقد وطّد الغرب صلته بالتراث الوثني اليوناني وألغى صلته بالكنيسة وتاريخها فكان العداء بين رؤاد حركة التنوير والنهضة في أوروبا والسلطة الدينية لقطع الصلة بين الماضي والحاضر النصراني وقيمه (انظر : ديدرو - فولتير - روسو - دالمبير - اندري مالرو - ألبير كامى - سارتر ..) في حين أن حركة أحياء التراث عندنا تختلف عن حركة أحيائه عند الغرب لكونها تواصل في الآن وقبل الآن لا تعاني من حذف لمرحلة تاريخية ما وتجدر الإشارة إلى أنّ التأليف هو أكبر كم تراثي لدينا . لكوننا أمة كتاب - كتب بحاسة ونوق فني يتجاوز العامة ، وهذا يدعونا بالاحاح إلى الارتقاء بالمجتمع ثقافيا وعلميا إلى تلك المرتبة لتعم الاستفادة منه بعد تحقيقه وغربلته وتبسيطه والاستفادة منه لتحقيق المحاوره بين التراث أو الأصالة والمعاصرة أو الحداثة لتنشئة الكائن الحاضر في زمانه المستوعب لاشكالياتها المبدع في انجازاته وهكذا لا يخرج التراث كمصطلح حديث في ثقافتنا العربية الإسلامية عن موقف ثلاثي الأطراف على حد تعبير محمد عابد الجابري (10) :

- هو موقف في مرحلة ازدهار الأمة أو النولة الإسلامية وحضارتها .

- هو موقف عن حاضر الأمة المتأخرة

- هو موقف عن مستقبل هذه الأمة المأمول

... . ليحيث مصطلح المعاصرة الذي يعني الانتماء إلى العصر أو التطور التاريخي الأني وهوية المشارك فيه ووجه حضوره وتأثره تماهيا أم ندية ومنافسة للأخر والانتقال من حال الغتراب إلى حال التأسيس الوطناني بعيدا عن الغتراب والتعالي

في أن فإذا التراث والمعاصرة يتصلان لطرح هم واحد في ما عرف في أدبيات المعاصرين باشكالية النهضة .

التراث إذا هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة وهو نقطة البدء لصياغة مشروع متكامل للتحرر يكون فيه الإنسان المحور والهدف في بعده الفردي والنفسي والاجتماعي الموصول بواقعه التاريخي وفي سياق ذلك سنحاول اكتشاف منزلة الانسان في تراثنا ومدى حضوره في التاريخ كما سنحاول تحديد ما يجب أن يكون عليه في منظور " نظرية التراث والتجديد "

الإنسان في تراثنا :

تتحدد منزلة الانسان في تراثنا العربي الإسلامي من خلال الرجوع إلى النص الديني أولاً في نقائه وصفاته وإلاحاطة بملابسات تنزيله في الواقع أو قل أسباب النزول وبواعيه والنظر في تنزيل هذا النص في الآن التاريخي الماضي سواء في عهود الازدهار أو الانحطاط المتلبس بضغط الواقع وثقافة العصر .

* فإذا رجعنا إلى النص الديني أدركنا أن محوره الإنسان كفرد أو كمجموعة مكلفة بأمانة الاستخلاف في الأرض التي أبت السماوات والأرض والجبال تحملها لما فيها من مسؤولية جسيمة والآيات الحاملة لهذا المعنى ماثلة في آيات القرآن الكريم في أغلب السور منها قوله تعالى : (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (11) يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (12) و (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه) (13) و (ان الإنسان لربه لكنود) (14) و (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) (15) كما ورد كذلك في سورة الفجر 15 الطارق 5 والبلد 4...

لقد تحدث القرآن الكريم عن الإنسان في جميع أحواله وأعراضه النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية والتاريخية والدولية في الحرب والسلم ، وجعل لها ضوابط وقوانين تحدد معالم منهج الاستخلاف والحياة مبدء ونهاية تكون غايته الترقى بالإنسان في اتجاه الاقتراب من الكمال الالهي عبر خطوات

أهمها العبادة بمفهومها الشامل الذي لا ينحصر في الفرائض وحدها إنما كذلك في مفاهيم العدل والمساواة والتأخي والوحدة أسرة ووطنا وأمة ، والتوازن والواقعية ... ولم تخرج السنة النبوية عن هذا التوجه العام سلوكا وتنظيرا تفصّل المجمال وتحدد المطلق وتوضح المبهم من الأحكام القرآنية وتشرّع المسكوت عنه ، وسواء كان التشريع قرآنا نزل منجما حسب الوقائع والأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة أو سنة امتدت هي الأخرى على طول الفترة الزمنية المذكورة فإن هذا " التراث المكتوب المقدس " ليس موجودا صوريا له استقلاله عن الواقع الذي نشأ فيه يراد تطويره في الآن بل هو تراث يعبر عن الواقع الأوّل الذي جرّ منه مكوناته " وأنّ " ما عبّر عنه بأسباب النزول لهو في الحقيقة أسبقية الواقع على الفكر ومناذاته له كما أنّ ما عبّر عنه الأوائل بـ " الناسخ والمنسوخ " ليدلّ على أنّ الفكر يتحدد طبقا لقدرات الواقع وبناء على متطلباته إن تراخى الواقع تراخى الفكر وإن اشتد الواقع اشتد الفكر (16) ... فالإنسان إذن أكثر جدلا فكان محورا تتراجع إليه جميع الكائنات بالتسخير قادر على تمثيل الوجود استيعاباً وتطويراً له بما يخدم وظيفته الوجودية حتّى إنّنا وجدنا أبا العلاء المعري يشخص هذا المعنى فيقول :

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

الإنسان اذن (رجلا وامرأة) قطب الوجود في العالم المادي في صورة مقابلة للخالق سيد الوجود مطلقا تتلخص مهمته في الترقى نحو الخالق عبر منهج الخلافة وهو الأكثر حضورا في النص الديني حضورا لا يضاويه كائن ما كان إنها مكانة لم يحققها شرع سماوي سابق ولم تحققها القوانين والأحكام البشرية حتّى عصرنا اليوم .

باختصار شديد ان النص في ثقائه وضع الإنسان موضع الفاعل في حركة التاريخ المستوعب لإشكالياته وقوانينه الموجهة لمساره بما أتيت له من قدرات هائلة مسنودة بهدى الوحي ، لكن هل استوعب الإنسان المسلم فردا ومجتمعاً قيمة هذه المكانة وهل استفاد منها في صيرورته التاريخية ؟

*أما إذا رجعنا إلى النتائج التراثية للمجتمع العربي الإسلامي الذي أعقب فجر الإسلام الأول فإننا نكاد نجزم أنه استحال على المسلمين استيعاب هذا الدرس التاريخي العظيم وهذه المكانة التي بوأها إياهم الإسلام - عدا بعض الاستثناءات الوجيزة من الزمن - فقد آل الوضع إلى نوع من السلبية والضمور تحت وطأة التصور الثنائي للعالم وانعكاس ذلك على مجريات السلوك والممارسة فيلبس النص بضغط الواقع وثقافة الفقيه وسيادة العرف وتغلغل التقاليد المنحرفة وشيوع الاستبداد الذي حوّل مؤسسه الحكم إلى سلطة قاهرة والمجتمع إلى مراتبيه سلطوية نلحظ سطوتها في أبسط التشكيلات الاجتماعية في مستوى الأسرة وما تعانيه المرأة من قهر في تاريخها الطويل نجد صده لا في التراث الفقهي القديم فحسب بل كذلك عند بعض المصلحين الاجتماعيين من ذوي الثقافة التقليدية كابن أبي الضياف مثلا الذي يقر بأن مراتبية المجتمع كما اقتضتها الحكمة الإلهية هرمية الرجل في القمه فالمرأة فالعبد فالأمة ثم الطفل فالجنون (17) .

لقد ورثنا هذه الفهم كذلك عن الكندي والفارابي ... وما له من آثار على وحدة السلوك وما يترتب عنه من تبرير وتعمية وأزواجية وهراتبية فخلطنا بين الوجدان والعقل في فكرنا المعاصر وسادت الخطابة على الفكر والانفعال على الفعل لكون " العقل في التراث القديم وما ورثنا من السلف كانت مهمته تبرير الدين على الأقل في علم أصول الدين وفي علوم الحكمة وأن العقل لم يستقل على الإطلاق ولم يوجه نحو الواقع وهو طرفه الأصيل " (18) فلقد أعطى تراثنا القديم أولوية الجانب النظري على الجانب العملي واعتبر التأمل قمة الفضائل النظرية وحقّر الصنائع والأعمال اليدوية من زراعة وصناعة وتجارة مقابل تهمين شأن الموظف والإداري والمشتغل بالثقافة .. لقد همّش دور الإنسان في تراثنا القديم وغاب كبعد مستقل حيث وضع في طرف مقابل مع الله دون وضعه في التاريخ وفي طرف مقابل مع الجماهير محاصرا بين الآلهيات والطبيعات في علوم الحكمة ومبتلعا في التوحيد ومغنيا في التصوف ومتلاعبا به في علوم التشريع من جانب فقهاء وقعا تحت سطوة الواقع وضغطه

هذا وقد نشأت بعض مظاهر التراث كمقاومة للانحراف التي طرأت على الواقع إلا أنها سرعان ما تحولت هي الأخرى إلى انحراف فإذا الانحراف يقاوم بانحراف آخر وإذا البناء يبنى ثم يهدم ثم يعاد البناء والترميم فيزداد التعرُّر ويضاع الوقت وتهدر الطاقات لغياب الإنسان كبعد مستقل يقول حسن حنفي في هذا السياق « لقد غابت الحقيقة وغاب معها الإنسان في ظل الجدل النظري العقيم الذي لا يغير من الواقع شيئا وكأنَّ المعركة الحقيقية هي معركة الفكر مع نفسه كما الحال في الفقه الافتراضي فواقعنا المنهار وجد في تراثنا القديم ما يبرر انهياره ويؤكدُهُ وكأنَّنا لا نختار من القديم إلا ما نريد ونبغي ... » (19) ومهما كانت وجهات النظر حول التراث فإنه لا يمكن التعميم بقطعية نافية لكل مظهر حيوي مجد في التراث فمظاهره في مجالات مختلفة في شتى العلوم حازت قصب السبق فسي الإبداع وأخرها ظهور علم الاجتماع أو العمران على يد عبد الرحمان بن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري والذي لم تكتشف أهميته إلا في أواخر القرن التاسع عشر فواجبنا إعادة النظر في موروثنا بما يعزز وجودنا ويكون دفعا ورافدا للنماء والتطور معا.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

قائمة المصادر والمراجع :

- (1) انظر محمود أمين العالم " الفكر العربي بين الأصالة والتحديث في مفاهيم وقضايا إشكالية " طبعة القاهرة 1989 ص 47 - 56.
- (2) انظر صفحة (1)
- (3) سورة الفجر الآية 19
- (4) انظر سنن الترمذي كتاب الدعوات ص 87
- (5) سورة مريم الآية 6
- (6) سورة فاطر الآية 32
- (7) التراث والمعاصرة - كتاب الأمة - ص: 27
- (8) سورة البقرة الآية 85

البقية ص : 54

علي بن محمد الزنجي

بقلم : محمد نبيل فرادي

تقديم :

ان التعريف بعلي بن محمد الزنجي - ضروري لكي نفهم فهما جيداً ما ارتبطت به شخصية من احداث خطيرة كادت تقوِّض أسس سلطة الخلافة العباسية وتزعزع أركانها ... وقد اعتقدت في البداية أن اختيار هذه الشخصية دون سواها موضوعاً لبحثي ، سيكون موضوعاً سهلاً ، يسير التناول ، لكن الواقع ، كشف لي غير ذلك فجل المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، تناولات هذه الشخصية وقدمتها في صورة منحلّة منحرفة .

وجلّ الأخبار والمعلومات التي جمعتها من ومضات الكتب والدراسات وإن كانت قليلة لقلة ما كتب عن علي بن محمد ، شابها كثير من التحريف والتزييف والدس . وكنت كلما أحسست أن مادة البحث استتعت أو كادت ، أخذت أتاملها وأستوعبها وأفحصها ، غير أنه لفت انتباهي ما قرأته فيها من تحامل عنيف اضطرني إلى إخضاع تلك المعلومات للنقد الداخلي كي أهتدي إلى أصولها ونصوصها الأولى ، فتعقبته في بعض المصادر المتوفرة تعقباً دقيقاً ، ثم أخضعتها للنقد الخارجي لأعرف شخصيات روايتها وميولهم ومقدار الثقة فيما يوردونه من أخبار وقد توصلت بهذه الطريقة إلى الوقوف على بعض الحقائق الهامة ، تفسّر بعض ما أشكل عليّ في هذا البحث .

– الحقيقة الأولى تتمثل في أن جلّ رواة أخبار هذه الشخصية تنتمي إن عقائدياً أو

سياسياً إلى سلطة الخلافة العباسية ، وهم خصوم الزنج واعدائهم

– الحقيقة الثانية : هي الغياب المطلق للكتابات المعبرة عن وجهة نظر الزنوج أنفسهم

– أما الحقيقة الثالثة : فتخصّ جل ما كتب بعد .. تاريخ الطبري .. إذ بقيت هذه الكتابات عالّة على هذا المصدر في تلقط أخبار علي بن محمد وثورة الزنوج وسوف أعرض فيما يلي تقديمًا نقدياً لأهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث وأبينّ وجه الاستفادة منها وهي كتاب .. تاريخ الرسل والملوك ... للطبري باعتباره أهم مصدر للبحث وكتاب .. مروج الذهب ومعادن الجوهر " للمسعودي " لتركيزه على توضيح عقيدة صاحب الزنج وسياسته ثم كتاب .. الكامل في التاريخ .. لابن الأثير لأنه حقّق بعض الأخبار الواردة في كتاب تاريخ الطبري ، وثبتت من وجهة نظره في صحّتها ، ولم يستثن من ذلك الأخبار المتعلقة بشخصية علي بن محمد وثورة الزنج ، ونخلص بعد هذا التقديم النقدي للمصادر المذكورة أنفاً إلى شرح كيفية حصولنا على المعلومات والخطوات المنهجية التي لا بدّ من توخيها وسلكتها لجمع مقوّمات البحث وتنضيد مكوّناته في إطار فهرس شامل للموضوعات نتناوله بالعرض والتحليل فيما بعد ، وقد اجتهدت ما استطعت أن أعرض شخصية علي بن محمد ، دون تحيز له أو تحيز ضده ، وأرجو أن يكون فيما سأقدمه بعض المنفعة .

التقديم النقدي للمصادر :

يتكوّن كتاب .. تاريخ الرسل والملوك .. لمحمد بن جرير بن يزيد الطبري من عشرة أجزاء – يبدأ الجزء التاسع منه بأحداث السنة التاسعة عشر بعد المائتين وينتهي بأحداث السنة السبعين بعد المائتين وهو أهم الأجزاء العشرة ، لأنه يحتوي على كل ما يتعلق بموضوع بحثنا ، وقد اتصفت طريقة الطبري بكثير من الدقّة والإفاضة في ذكر تفاصيل الأخبار المتعلقة بشخصية علي بن محمد وهذا ما جعل كتابه .. تاريخ الرسل والملوك .. يحظى بصدارة ترتيب المصادر الأخرى التي اعتمدنا عليها في طرق المسألة ، فهو المصدر الوحيد الذي نهلت من معين محتوياته

كل الكتب التاريخية التي جاءت بعده ولذلك نعتبره أهم مصدر وفيه أو في المعلومات المتعلقة بهذا المبحث - غير أننا لا نرتاح إلى كل ما ورد فيه لأن الطبري يبدو من خلال سرد الوقائع والأخبار مُعَادياً شديداً التحامل على علي بن محمد وثورة الزنوج الذين معه ، وهذا قد يؤدي إلى طمس جوانب كثيرة من حقيقة شخصية صاحب الزنج وأهداف ثورته .

أما الكامل في التاريخ لابن الأثير فهو كسائر التواريخ القديمة ، سرد للحوادث والأخبار بحسب تواريخها ويعترف صاحبه بأنه نقل عن الطبري . وقد أشار إلى ذلك في مقدمته فقال أنه أخذ عن التاريخ الكبير لأبي جعفر الطبري وخاصة السبعة أجزاء الأولى منه وأخذ من مصادر أخرى كابن الكلبي ، والمبرد ، والبلاذري ، والمسعودي ... ويمتاز ابن الأثير بشدة التثبت فيما ينقل وهو ينقد أحيانا المصادر التي يستمد منها ، ولأجل ما يتصف به ابن الأثير من التدقيق والتحريص في نقل الأخبار وتصفيتهما مما يشوبها من الخلط والغلط ، اعتمدنا كتابه هذا « الكامل في التاريخ » فهو من هذه الجهة يساعدنا على توضيح بعض ما أشكل علينا ، أمّا أهميته بالنسبة لموضوع بحثنا فتتمثل أساساً في إلمام صاحبه بأغلب تفاصيل شخصية صاحب الزنج وأخباره وهو إن لم يصف شيئاً عن بعض المصادر التي جاءت قبله وأعني بالتحديد كتاب « تاريخ الرسل والملوك » للطبري ، إلا أنه يوضح منه كثيراً من الأمور الغامضة في كثير من المواضع ، ولذلك يمكن أن نعدّه مصدراً أساسياً للبحث .

ونلاحظ أن الطبري وابن الأثير كلاهما سني وهذا يعني أن زاوية نظرهما لمسألة ثورة الزنوج وموقفهما من علي بن محمد تحده وجهة نظر متجانسة متأكفة لا نقف بينهما على كبير اختلاف .

أمّا المسعودي وهو شيعي المذهب فيعتبر كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » من أهم المصادر التي تضمنت في طياتها معلومات دقيقة ومفصلة عن شخصية علي بن محمد وما تعلّق بها من أحداث ووقائع ، وهو وإن لم يصف الكثير إلى ما

ورد في كتاب الطبري ، فإن تركيزه على بعض الجوانب دون سواها من المعلومات الخاصة بشخصية صاحب الزنج ، تجعلنا نتوقف عند أهم إضافاته . وقد برز ذلك خاصة فيما يخص سياسة وعقيدة هذه الشخصية . ولكن صيغة التحامل وموقف العداء الواضح التي تجلّتا في سرد ما يخص صاحب الزنج وثورته من أحداث ، تجعلنا نقف من هذه المعلومات موقف الاحتراز والريبة إذ تفتقر هذه الأخبار إلى الموضوعية وربما يكون ذلك مبعثا لطمس الحقائق وإظهار جوانب دون أخرى .

إن موقف العداء الذي تجلّى في محتويات هذه المصادر يعود سببه في بعض جوانبه المذهبي بين انتماءات هؤلاء المؤرخين وعقيدة صاحب الزنج إذ ربط علي بن محمد هذه المسألة بمصالحه وأغراضه .

* اسمه :

إن تعريف شخصية علي بن محمد تبدو محفوفة من جميع جوانبها بطوق من الغموض والتعتيم المقصود ذلك أن صاحب هذه الشخصية استغل اسمه وأصله ونسبه لخدمة مصالحه السياسية ، وقد ذكر لقائد الزنج أسماء متعددة ومختلفة ، بهبوذ ، البرقوعي ، وعلي بن محمد (1) ... وجاء في "المنتظم" لابن الجوزي تعريف لبهبوذ هذا باعتباره قائدا للزنج يقول فيه " بهبوذ صاحب الزنج " وقد ذكرنا أحواله وكان خروجه يوم الأربعاء لأربع بقين من رمضان سنة خمس وخمسين و قتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ، وكانت أيامه أربعة عشرة سنة ، وأربعة أشهر وستة أيام وحكى أبو بكر الصولي أن مبلغ من قتل في هذه المدة من الناس ألف ألف وخمسمائة ألف واستأمن من أصحابه خمسة عشر ألف رجل (2) .

غير أن الطبري يرى أن اسمه الحقيقي هو : علي بن محمد ، وأن بهبوذ اسم لواحد من أشهر قواده الذين يعملون تحت امرته ويزيد فيورد خبرا عن مقتل بهبوذ هذا يقول : « ذكر أن أكثر أصحاب الفاسق غارات وأرشدهم تعرضا لقطع السبيل ، وأخذ الأموال كان بهبوذ بن عبد الوهاب وكان قد جمع من ذلك مالا جليلا ، وكان كثير الخروج في السعيريات الخفاف .

.. وقد قصد بهيود إحدى السميريات طامعا فيها فحاربه أهلها فأصابته طعنة في بطنه من يد غلام من مقاتلة السميرية أسود ، فهوى إلى الماء فابتدره أصحابه ، فحملوه ، وولوا منهزمين إلى عسكر الخبيث ، فلم يصلوا به إليه حتى أراح إليه منه ، فعظمت الفجيعة به على الفاسق وأوليائه واشتد عليه جزعهم » (3) . ولئن بدا الاختلاف جلياً فيما تقدم من تعريفات لاسم صاحب الزنج فإن أغلب المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة اتفقت حول اسم علي بن محمد . (4)

وبما أن أوفى وأقرب تعريف له في الزمن هو تعريف الطبري (توفي 310 هـ) فإننا نرجح رأيه ، ونشير من جهة أخرى إلى أن صاحب الزنج سُمِّيَ بغير اسمه الحقيقي في كثير من الأحيان ، واستعملت في ذكره ألقاب وصفات عديدة ومختلفة من مثل قائد الزنج ، الدعي العلوي البصري والفاسق والخبيث والطاغية الفاجر ... وكذلك رئيس الزنج الخبيث العلوي ... " وقد ذهب حسن إبراهيم حسن إلى أن أعداءه سَمَوْهُ دَعِيَّ علي ، كما سَمَوْهُ الخبيث " (5) .

وهذه الصفات ليست صادرة عن مواقف موضوعية وإنما هي صادرة عن موقف منحاز ومعادي لصاحب الزنج وقد لُصِّقَ ذلك في مضمونها المتحامل ؟

<http://Archivebeta.sakhril.com>

* أصله :

ان الشك في أصل علي بن محمد - شمل جلّ ما ورد عنه من أخبار متعلقة بهذا الجانب وقد بدا هذا الشك جلياً من خلال مظهرين :
- المظهر الأول تم بالتصريح وذلك باستعمال جمل أو تراكيب أو عبارات مخصوصة مثل : ادعى ، يزعم .. أو فيما يذكر

- المظهر الثاني ضمني : من خلال إغراض وإهمال صنف معين من الكتب لأخبار علي بن محمد الزنجي ، ونقص ذلك على وجه الخصوص كتب الأنساب ، مثل " الأنساب " للسمعاني ، و " أنساب الأشراف " للبلاذري ...

وقد تعلقت أخبارها بأنساب الأعلام والمشاهير من العرب ، وأهملت من لم يكن من أصل عربي ، وقد يكون الشك في أصل علي بن محمد ، سبباً في إهمال ذكره ،

وعموماً أقرت بعض المصادر أن علي بن محمد أصله فارسي ، يقول حسن إبراهيم حسن " وقد قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسي يسمى علي بن محمد من أهالي الطالقان ادعى أنه من ولد علي زين العابدين بن الحسين بن علي ... » (6).

أما بروكلمان فإنه تردد في نسبه الفارسي ، يقول : « فظهر رجل فارسي اسمه - علي بن محمد وكان يزعم أنه ينتسب إلى علي وفاطمة من طريق زين بن علي من أجل ذلك فمن الجائر أن تكون نسبته هذه حقيقة لما كان عليه بيت زيد بن علي من كثرة العدد آنذاك ... (7) ولكن الرأي الغالب في المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة ، وإن كانت تشك في أصله فإنها تميل إلى اعتباره من أصل عربي خالص ، وليس أدل على ذلك مما يورده الطبري في كتابه من معلومات تتعلق بأمه وأبيه وجده ومسقط رأسه وكذلك القبيلتين اللتين ينحدر منهما بالنسب يقول وكان اسمه ونسبه - فيما ذكر - علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس ، وأمه قرّة ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن هشام بن عبد الملك مع زيد ابن علي بن الحسين ، فلما قتل زيد هرب فلقق بالرّي ، فلقجاً إلى ورزئين فأقام بها ، وإن أبا أبيه عبد الرحيم ، رجل من عبد القيس ، كان مولده بالطالقان ، وأنه قدم العراق ، فأقام بها واشترى جارية سندية ، فولد لها محمداً أباه ، فهو علي بن محمد هذا ، وأنه كان متصلاً قبل بجماعة من آل المنتصر ، منهم غانم الشطرنجي وسعيد الصغير ، ويسر الخادم وكان منهم معاشه ومن قوم من أصحاب السلطان وكتابه يمدحهم ويستميحهم بشعره » (8) وعموماً الاختلاف الحاصل في أصل قائد الزنج إن كان فارسياً أم عربياً يمكن أن نحسمه بترجيح أصله العربي ذلك أن أغلب الدارسين مالوا إلى هذا الرأي ، ويُعد الطبري الذي تعرّض لهذه المسألة أقرب المؤرخين زمنياً من غيره . ويمكن أن تكون معلوماته أقرب إلى الواقع والحقيقة .

* نسبه :

إن التعرض لنسب علي بن محمد مسألة بالغة التعقيد ، إذ الاختلاف حول هذا الموضوع شديد ، لأن قائد الزنج تعمّد اخفاء نسبه الحقيقي وأظهر لنفسه انتسابات كثيرة لاحظنا أن تغيّرها ارتبط في كثير من الأحيان بتحوّله من مكان إلى آخر ولعلّ أكثر من أفاض الحديث في هذه المسألة من المؤرخين والمهتمين هو الطبري ، إذ يقول " وكان اسمه ونسبه فيما ذكر - علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس وأمه قرّة ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة من ساكني قرية من قرى الرّي يقال لها ورزّنين فأتاهم بها ، وأن أبا أبيه عبد الرحيم رجل من عبد القيس كان مواده بالطالقان وأنّه قدم العراق فأتاهم بها واشترى جارية سنديّة ، فولدها محمداً أباه ، فهو علي بن محمد هذا ، وأنّه كان متصلاً قبل جماعة من آل المنتصر ، منهم غانم الشطرنجي ، وسعيد الصغير ويسر الخادم ، وكان منهم معاشه ، ومن قوم من أصحاب السلطان وكتابه يمدحهم ويستميحهم بشعره .

ثم إنه شخص - فيما ذكر - من سامراً سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين فادعى بها أنّه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن أبي بن أبي طالب ، ودعا الناس بهجر إلى طاعته ، وأتبعه جماعة كثيرة من أهلها ، وأبته جماعة أخرى فكانت بسببه بين الذين اتبعوه والذين أبوه عصبية قتلت بينهم جماعة ، فانتقل عنهم لما حدث ذلك إلى الاحساء ، وضوى إلى حيّ من بني تميم ، ثم من بني سعد يُقال لهم بنو الشمس فكان بينهم مقامه ، وقد كان أهل البحرين أحلوّه من أنفسهم محلّ النبي - فيما ذكر - حتى جُبي له الخراج هناك ونفذ حكمه بينهم ، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه ووتر منهم جماعة كثيرة ، ففتكروا له ، فتحول عنهم إلى البادية وكان ينتقل من حيّ إلى حيّ ، وذكر أنه عند مصيره إلى البادية أو هم أهلها أنّه يحيى (به) بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة (9) ولما كان علي بن محمد يغيّر نسبه ويتصرّف فيه حسب إرادته كلّما انتقل من مكان إلى آخر فقد وقع اختلاف كبير حول نسبه الحقيقي . وتورد بعض المصادر والمراجع الأخرى

ادعاءات تختلف في كثير منها عما ذكره الطبري فهو :

- علي بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب وقد زعم أنه يحيا به عمر العلوي أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة (10) أو هو - علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن الحسن بن أبي طالب (11) - علي بن محمد بن علي بن عيسى بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب (12) وادعى كذلك أنه : علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن الشهيد بن زيد بن علي وعلي بن محمد العبقي المدعي بأنه علوي (13) .

وأنه من ولد العباس بن أبي طالب .

ثم من ولد الحسن بن عبيد الله بن العباس (14)

ولا يخفى ما بين هذه الادعاءات من فروق واضحة للعيان ففي كل مرة نقف على إضافة اسم جديد ومختلف في سلسلة النسب .

- فهل هناك أسباب خفية تجعل الزنج يغير نسبه كلما انتقل من مكان إلى آخر ؟

" قال محمد بن الحسن : وانتسب الخبيث إلى يحيى بن زيد بن علي بعد أخراجه البصرة وذلك لمصير جماعة من العلوية الذين كانوا بالبصرة إليه ، وأنه كان فيمن أتاه منهم علي بن أحمد بن عيسى بن زيد وعبد الله بن علي في جماعة من نسايتهم وحرمتهم ، فلما جاؤوه ترك الانتساب إلى أحمد ابن عيسى وانتسب إلى يحيى بن زيد . قال محمد بن الحسن : سمعت الخبيث وقد حضره جماعة من النوفليين ، فقال القاسم بن حسن النوفلي : إنه قد كان انتهى إلينا أنك من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، فقال : لست من ولد عيسى ، أنا من ولد يحيى بن زيد ، وهو في ذلك كاذب ، لأن الإجماع في يحيى أنه لم يعقب إلا بنتاً ماتت وهي ترضع . (15) .

ويورد ابن خلدون ما مفاده أن " أكثر دعاة العلوية الخارجين بالعراق أيام المعتصم وبعده أكثرهم من الزيدية ، وكان من أئمتهم علي بن محمد بن أحمد بن عيسى وكان نازلاً بالبصرة ، ولما وقع البحث عليه من الخلفاء ظفروا بابن

بابن عمه علي بن محمد بن الحسين فقتل بفدك - ولأيام من قتله خرج رجل بالرّي يدعي أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى المطلوب وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهدي ولما ملك البصرة لقي علياً هذا حياً معروف النسب فرجع عن ذلك وانتسب إلى يحيى قاتل الجوزان أخى عيسى المذكور ، ونبه المسعودي إلى طاهر بن الحسين ، وأظنه الحسين بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسين السبط أنه لا عقب له إلا من علي بن الحسين . وقال فيه علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن طاهر * (16)

ان الاختلاف في تبرير تغيير علي بن محمد لنسبه ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتغيير المكان والمقام وما أورده الطبري وابن خلدون للكشف عن بعض الجوانب والأسباب التي تقف وراء تغيير قائد الزنج لنسبه تبدو في الظاهر مقنعة وكافية ، ولكن ما ورد من هذه الأسباب يظل برأينا قاصراً عن بلوغ مرتبة اليقين لأن هناك خفايا أخرى لم يكشف عنها بعد .

ARCHIVE

* سياسته وعقيدته :
يكتسي النظر في سياسة علي بن محمد وعقيدته قيمة كبيرة تساعدنا على فهم جانب آخر من جوانب هذه الشخصية . وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية ما يلي
bien qu'il pretendit etre alide et usat du titre de Mahdi il n'adopta pas la croyance shiite, mais professa du contraire la doctrine egalitaire des Kharidjites ...>>

رغم زعمه بأنه علوي ، واستعماله للقب المهدي ، لم يتبنّ العقيدة الشيعية ولكن على العكس من ذلك " دان بعقيدة المساواة عند الخوارج "

" وظهر من فعله ما دلّ على تصديق ما رمي به [من] أنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج ، لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ القاني وغيره ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه ، وله خطبة يقول في أولها : الله أكبر ، الله أكبرا ، لا إله إلا الله ، ألا لا حكم إلا لله ، وكان يرى الذنوب كلها شركا ، وكان

أنصاره الزنج (18)، وهو لم يصدر في دعوته على أساس من حقوق أسرته بل جاهر بعقيدة الخوارج التي ترفض كل تمييز قومي ، والتي بدت من غير شك سائغة عند اتباعه على الخصوص .» (19) ورغم أن قائد الزنج ادعى الانتساب إلى علي وفاطمة فإنه لم يجهر بالمذهب الشيعي وإنما جهر بعقائد المذهب الخارجي . وقد بدأ علي بن محمد ثورته بالدعوة إلى تطبيق أحكام الاسلام واستشهد بالآية الكريمة «... إنما المؤمنون إخوة ...»

وبالحديث " شر الناس من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده .. ووجدت هذه الدعوة كثيرا من القبول لدى كثير من الأحرار المسلمين الأتقياء الذين ساء لهم أن يروا إخوانهم في البشرية يعانون من التعذيب والسخرة ولا يعاملون بما أمر به الإسلام من رحمة وإخاء وحرية " (20) واتخذ صاحب الزنج في مدينته التي سماها المختارة منبرا كان يصعد عليه ويسب عثمان وعلياً ومعوية وطلحة والزبير وعائشة ، على الرغم من انتسابه إلى علي ، رغم ذلك فإنه لا يتبنى علياً إلا من حيث النسب ولا يتبنى سياسته وفي ذلك دليل واضح على الموقف الرفض لسياسة الخلفاء الذين تلو (عمر) والذين اتصفت عهودهم بالظلم والابتعاد عن مبادئ العدالة التي جاء بها إسلام الشيخين أبو بكر وعمر (21)

وقد حرص علي بن محمد على الاقتصاص والانتقام من الظالمين .. فنأدى بأن ساعة نهاية الرق والعبودية قد حانت واستشهد بالآية الكريمة « إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم وذلك هو الفوز العظيم » وفسر الزعيم هذه الآيات تفسيراً سياسياً فقال أن المؤمنين وقد اشتروا أنفسهم لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية (22) ويمكن أن نستخلص مما تقدم تبني علي بن محمد لسياسة الخوارج وعقيدتهم من جهة وكذلك انتسابه إلى آل أبي طالب من جهة أخرى [رغم أنهم ينكرونه] وذلك لغاية سياسية بحتة .. فالنسب العلوي بالنسبة له مناوره لإضفاء الشرعية على

دعوته في أوساط القبائل العربية والمعارضة الشيعية» (23).

* الإحالات :

Encyclopedie de l'Islame _ ALI .ben Med AL_ Zandji _ B Lewis Tome I (A _ (1
B) P . 400

- (2) * التنظيم في أخبار الملوك والأمم * لابن الجوزي ج (5 و6) صص 74 - 75
- (3) * تاريخ الرسل والملوك * للطبري - ج 9 صص 191 - 339
- (4) * الكامل في التاريخ * لابن الأثير - ج 7 صص 205 - 206
- (5) * تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي * حسن ابراهيم حسن ج 3 ص 210 .
- (6) نفسه ص 209
- (7) تاريخ الشعوب الإسلامية * كارل بروكلمان ص 215
- (8) تاريخ الرسل والملوك * للطبري ج 9 ص 410
- (9) * تاريخ الرسل والملوك - لابن جرير الطبري ج 9 صص 410 - 411
- (10) * الكامل في التاريخ * لابن الأثير - ج 7 صص 206 - 207
- (11) * مروج الذهب ومعادن الجوهر * للمسعودي ج 4 ص 194
- (12) * مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين * لأبي الحسين الأشعري ج 1 ص 165
- (13) * شذرات الذهب في أخبار من ذهب * العنبري ج 2 ص 129
- (14) * كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر *
للعلامة عبد الرحمان بن خلدون ج 3 ص 688
- (15) * تاريخ الرسل والملوك * الطبري ج 9 صص 487 - 488
انظر كذلك = ابن الأثير ج 7 ص 246
- (16) * كتاب * العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر *
للعلامة عبد الرحمان ابن خلدون المغربي ج 3 ص 688
- (17) Encyclopedie de l'Islam Ali Ben Med ALZANDji _ B Lewis _ tome I (A _ (1
B) P 400
- (18) * مروج الذهب ومعادن الجوهر * للمسعودي ج 1 - صص 194 - 195
- (19) * تاريخ الشعوب الإسلامية * كارل بروكلمان ص 215
- (20) (10 - ثورات في الإسلام * لعلي حسني الخريوطي ص 184
- (21) * الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية * محمد نجيب أبو طالب ص 208
- (22) * 10 ثورات في الإسلام * لعلي حسني الخريوطي ص 185
- (23) * الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية * محمد نجيب أبو طالب ص 208 .

شعر الطبيعة عند العرب

الصنوبري وابن خفاجة نموذجا

بقلم : فتحي الحسني

1) الصنوبري : هو أبو بكر بن محمد بن حسن بن مرار الضبّي ، توفي سنة 334 هـ ، ولد بأنطاكية وسكن حلب وإليها نسب ، وقضى أكثر حياته فيها ، وهو من شعراء بلاط سيف الدولة والمشرق على خزانته ، ما وصلنا من شعره هو جزء قليل ضاع أغلبه .

* خصائص شعره :

لقد نظم الصنوبري في أغلب الأغراض وكانت شهرته ترتبط بفرض الوصف ووصف الطبيعة خاصة ، الطبيعة الحية والطبيعة الجامدة .
- الطبيعة الحية : من صنوف المخلوقات ما عدا الإنسان ، تغنى خاصة بالطيور المفردة ووصف أصواتها وألوانها ، وقد اهتم بها اهتمام الفنان الباحث عن مواطن الجمال في الكون ، وهي عنصر مكمّل لجمال الطبيعة .

للطيور صنوف أصوات فذا يدعو وذا يحثو وذا يسمع

كما وصف الخيل والفتران والذباب والحمام والديك والهرّ . فكان مندمجا في عالم الحيوان ، فأفاض عليه كثيرا من ذاته . وكان وصفه تسجيليا تقريريا .

- الطبيعة الجامدة : هي التي خصّص لها أغلب مادته الشعرية وقد قسم بعض الباحثين هذه الطبيعة إلى أغراض جزئية ، لكن هذه التجزئة وهمية شكلية ، لأن الطبيعة في شعر الصنوبري « كلّ لا يتجزأ تنصهر أجزاؤها وتتناغم في

لوحات كاملة خلابة يصعب فكّ أجزائها .

– **الروضيات** : وصف الصنوبري الروض وصف الفنان المتأثر بسحرها فهي معبده لا يجوز انتهاكه .

لو كنتُ أملك للرياض صيانةً يوماً لما وطئ الثّام ثراها
هذا الإطار الطبيعيّ الفاتن موحش رغم جماله ، إن لم يحتضن مجلساً للأنس والشراب . إنّ الطبيعة تتفاعل مع الشاعر وتخطبه بلغة الجمال وهي صامتة .
فتظل تنطق وهي ساكنة إنّ الرياض سكوتها نطق
– **الزهريات** : اعتبره ابن شرف وحيد جنسه في وصف الأزهار وأنواع النور كان يعرف أسماعها وأشكالها ونموها ومواسم تفتحها . فوصفها مشخصاً حتّى أصبحت الأزهار تبسم وتدعو الناس إليها .

زهر الرياض إن هي ابتسمت تدعو فيسرع نحوها الخلق
كما نجده يعقد مناظرات بين الأزهار أو حواراً أو قصصاً صغيرة .
– **المائيات** : عاش الصنوبري في حلب وسافر إلى الرقة ودمشق وهي مدن غنية بمواردها المائية ، فوصف المطر وتقنن في وصف الطبيعة المكفّهرة ، كما وصف الطبيعة المشرقة .

وصف الأنهار والبرك والنوايب وعيون الماء .
عين الماء كعين المشوق إن يدعكها شوقها تذرف
– **الثّجيات** : الصنوبري رائد هذا الميدان إذ لا نجد في الشعر العربي وصفا للثّج وكانت حلب إطاراً لهذا الوصف .

والري لا بسات ثّج ونار يجلوان الإظلام والإيماض
فأضاف إلى الشعر العربي غرضاً جديداً .
– **الفصليات** : تفنّى بالفصول متفرقة ومتجمعة ودعا إلى التمتع بها وكان يفضل الربيع .

ما الدهر إلّا الربيع المستتير وإذا أتى الربيعُ أتاك النودُ والنودُ

شعر الصنوبري لغة وأسلوباً :

امتازت المعاني في شعر الصنوبري بالوضوح ، فكان لا يكلف نفسه الفصوص في غامض المعنى ولا يتعَب نفسه في البحث عن الصورة الموحية الشديدة الطرافة - **الألفاظ** : تنبع في جدولين أو معجمين :

- معجم الألفاظ الرقيقة عندما يتجاوب مع حياته الحضرية الناعمة
- معجم الألفاظ الجزلة البدوية عندما يحن إلى الجذور البدوية القبلية ، ويتداخل هذان النوعان ويندمجان في تناسق وتناغم حسب الغرض .
- **الوصف** : إن الطرافة الفنية في الوصف مطعمة بمشاعره ومواقفه وخياله والوصف في شعره نوعان :

* وصف مباشر واضح أحياناً

* وصف فني مبني على التشابه والاستعارات والتشخيص ، وقد عمد إلى المحسنات البديعية من جناس وطباق ومقابلة ...

فشعر الطبيعة عند الصنوبري تتجلى فيه عبقرية الفنية وإبداعه الشعري وطريقته الغالبة إنما هي ذكر النور والنور والطير ووصف الرياض .
أما ميزته الأساسية فهي جعل الطبيعة غرضاً أساسياً بعد إن كان مشتتاً بين الأغراض . فهو غرض مستقل أضاف إليه فنونا لم يعرفها الشعر العربي من قبل كالشجيات . وامتاز وصفه بالشمولية ، فقد اهتم بوصف الجزئيات الطبيعية الدقيقة ، فلم يهمل أي جزء منها .

ويبقى الصنوبري شاعراً متميزاً في شعره لكن لعلهُ من المبالغة أن نعتبـره صاحب مدرسة لأنه في مجال الأساليب الفنية وقوة الخيال والصناعة الشعرية يبقى شاعراً عادياً .

2 - ابن خفاجة :

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفرج بن خفاجة ولد سنة 455 هـ ببلدة شُعْر من أعمال بلنسية بشرقي الأندلس ومات بها سنة 533 هـ عاش فترتين في حياته

– **فترة أولى :** عاشها في أواخر عصر بني أمية وزمن ملوك الطوائف فيها تعلّم وترعرع في أحضان الطبيعة وظهرت في شعره .

– **فترة ثانية :** في أولها يكف عن قول الشعر في ظروف غامضة وهي فترة تمسح جانباً من عصر المرابطين ، ولعلّ سبب ذلك يرجع إلى تشدّد الفقهاء المرابطين ، ثم عاد في نهاية هذه الفترة إلى قول الشعر ، وانقلب شعره عندها من اللّهُو والمجون إلى مدح ملوكهم ولكنه لم يكن شاعر بلاط .

*** ديوانه :**

ترك ابن خفاجة رسائل نثرية فيها بكاء على الأصدقاء الذين مضواً وأخرى فيها الحنين إلى عصر الشباب و أخرى رسائل التوبة .

جمع ابن خفاجة شعره بنفسه استجابة لطلب أصدقائه ، وقد ذكر ذلك في خطبة الديوان . ولم يرتب ديوانه على حروف المعجم . وقد وصلنا ما جمعه من الشعر كاملاً سائماً من الضياع .

– المادّة الشعريّة :

لقد نظم ابن خفاجة في جل الأغراض : المدح ، الرثاء ، الفزل ، الزهد ، الشكوى ، الفخر ، الهجاء ، لكن أهم غرض نظم فيه هو الوصف ويمكن ضبط المادّة الشعريّة في الطبيعة كما يلي :

– الطبيعة الجامدة :

– الرياض والروضيات بسببها لقب " الجنّان "

– الأزهار ، وصف كلّ أنواعها : الورد ، الأقحوان ، الخزامى ، النرجس ، البنفسج ، الأس ، السوسن .

– الأشجار : وصف أنواعها وثمارها وأوراقها

– الأنهار والبحار : خصص لها قرابة أربعين مقطوعة

– الثمار والغلال : وهي قليلة كالعنب والرمان والتين وخصص لها قرابة عشر

مقطوعات .

– الطَّبِيعَةُ الحَيَّةُ : هي الحيوانات غير الإنسان .

– وصف الفرس فخصَّصَ له أربعين مقطوعة

– وصف الناقة والكلب والأرنب والذئب والأسد والعقاب والنحل والحيَّة فكان وصفه

للطبيعة الجامدة أوفر من الحيَّة .

– ابن خفاجة شاعر الطبيعة التقليدي :

قديمًا وصف الشَّقْنُدي ابن خفاجة بأنه " صنوبري الأندلس " وكذلك قال المقرئ .
وقد ذكر في خطبة ديوانه أنه تأثر بشعراء مشاركة كالشريف المرتضي ومهيار الديلمي .

فهو إذن شاعر عربي يميل إلى القديم في أغراضه ومعانيه ولغته وأساليبه الشعرية لا يختلف عن شعراء الشرق إلا بمنزلة الطبيعة في شعره كفرض يقصد إليه الوصف ويستمد منه صوره وتشابيهه . كما ثار على طريقة المتنبي في مزج الغزل بالحماسة . وتأثره بالشعراء المشارقة لا يقل عن تأثره بالشعراء الأندلسيين الذين سبقوه كالرَّمَادِي وابن حمديس وابن زيدون والقاضي ابن عباد .
ظهر هذا التأثير في اتخاذ الطبيعة قاعدة للغزل والذكرى . كما اتخذ الطبيعة ميدانًا فنيًا منه استمد صوره واستعاراته . فلاح شاعرا تقليديًا .

– ابن خفاجة شاعر الطبيعة المجدد المبدع :

كان الشاعر يريد أن يعيش عيشة مطمئنة من نوع الأحلام اللذيذة . فكان شعره يمتاز بخصائص ووجوه من الطرافة ما يجعله مجددًا ومتحررًا من قيود التقليد بل هو صاحب مدرسة سمّاها بعضهم " المدرسة البلنسية " كما بدا التأثير واضحًا بشعر المشرق خاصة في فنون الصياغة الشعرية وقد تميزت بالوصف والخيال والمحسنات البديعية.

– أهم مميزات شعر ابن خفاجة :

– لقد شغف ابن خفاجة بوصف الفرس لإبراز فحولته الشعرية حتى بدت معاني

أشعاره مُعَقَّدةٌ أحياناً .

– كما ظهر شغفها بالقاموس اللغوي الجاهلي من ناحية وبالقاموس القرآني من ناحية أخرى .

– يمتاز بخيال شعري ، ويعتمد على ابتكار الصورة الجديدة . كما ربط وصف الطبيعة بموضوع الرثاء والزهد والفناء ، فأوحى له الطبيعة بمعاني العبرة والموعظة .

فلم تكن الطبيعة عنده صورا جامدة يستمد منها صوره الشعرية ولم تكن عنده جمالا ولهوا ومجونا وملذات كما الحال عند الصنوبري
– كما أنه لم يكتف في وصف الطبيعة بتشخيصها والتجاوب معها أو استلها من مواطن الجمال فيها بل تعدى ذلك إلى أنسنة الطبيعة وخلق صلة مأساوية بينه وبينها وهي صلة الطبيعة عنده بالموت والفناء .



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

بقية ما بصفحة : 37

- (9) التراث والمعاصرة – كتاب الأمة – ص : لأكرم ضياء الفكري
(10) التراث ومشكل المنهج في المنهج في الأدب والعلوم الإنسانية ط 1 – المغرب 1986 ص 74

- 11) سورة البقرة الآية : 30
12) سورة الانقطار الآية : 6
13) سورة الانشقاق الآية : 6
14) سورة الطيات الآية : 6
15) سورة يونس الآية : 14
16) التراث والتجديد (المقدمة) ص 6 لحسن حنفي ط – مكتبة الجديد
17) عن دراسة " المرأة والفكر الاجتماعي للمسلمين " للأستاذ عبد الرزاق الحماصي ص : 22
18) التراث والتجديد ص 10 لحسن حنفي
19) نفسه ص 16 وما بعدها

الموطن والوطن في المجموعة الشعرية: (غدا تطلع الشمس) للشاعر جعفر ماجد

بقلم : بلقاسم سعيد

تقديم : ولي وطن أليت أن لا أبيع

وان لا أرى غيري له الدهر مالكا

(للشاعر ابن الرومي)

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

استهلال : قد يتسائل العديد من القراء عن سبب اختياري لمجموعة (غدا

تطلع الشمس) للشاعر جعفر ماجد وهي مجموعة تعتبر من أولى انتاجات الشاعر الذي أصدر مجاميعا شعرية أخرى آخرها (تعب) وللإجابة عن هذا التساؤل أقول أن اختياري للكتابة عن هذه المجموعة هو اختيار شخصي نتيجة رسوخ قناعة لديا مفادها أن العديد من المجاميع الشعرية القيمة التي أفرزتها مرحلة الستينيات والسبعينات من هذا القرن تعتبر إضافات لديوان الشعر التونسي والعربي بصفة عامة لم تأخذ حظها من البحث والدراسة ويكاد يغمرها النسيان وإذا وجب حسب رأي إعادة الاعتبار إليها وإلى مؤلفيها وذلك بدراستها دراسة معمقة حتى تستفاد منها الأجيال الشعرية الصاعدة ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر مجموعة (رحلة العبير) للشاعر نور الدين صمود (سواحل مهجورة) للشاعر جمال

الدين حمدي (أبعاد) للشاعر علي عارف (قلب على الطريق) و (غدا تطلع الشمس) للشاعر جعفر ماجد .

بعد هذا الاستهلال الوجيز نمارس معا سفرا لذيذا في أبيات الشاعر جعفر ماجد التي تتغنى بالموطن والوطن من خلال مجموعته الشعرية السالفة الذكر .

الموطن

للقيوان قديما وحديثا مكانة كبرى لدى شعراءها ذلك أنها مدينة عريقة ومتميزة بمكانتها الحضارية عبر التاريخ والشاعر أحد أبنائها الذين تاهوا في عشقها وشدهم جمالها وروعة سحرها فصاغ أروع القصائد فيها يقول في واحدة من هذه القصائد بعنوان (الأصنام) بعد فراق طال من مسقط رأسه وعلهى صباه مخاطبا القيوان :

أتيت من غربتي لولاك لم أت كفى ملاك يا أغلى حبيباتي
طال الفراق على قلبي وأوجعني ان لا أرى غيره حلا لمأساتي
ومن يصدق أنني عنك في شغل وحبك البكر عندي زيت مشكاتي

نلاحظ هنا مدى تعلق الشاعر بموطنه القيوان إذ يصف حبه لها بزيته مشاكته وكما في هذا الوصف من معنى لقد أحب الشاعر موطنه فما زال يتذكر كل مرابعه وأوديته وروايبه يقول في نفس القصيدة :

على ضفاف (زرود) قد رسمت غدى ومن أماسيك كم زوقت لوحاتي
يا قيوان بماذا عدت من سفري لم يبق لي فيك إلا الظل من ذاتي

إن حب الشاعر لمدينته جعله يتأسف لما آل إليه وضعها رغم مظاهر التقدم العصري فهو يحن إلى تلك الأوضاع التي عاينها صبيا بين أزقتها وشوارعها ثم هو

لا ينسى عطاءات هذه المدينة التاريخية وما أنجبت من رجال أفاضوا وأبطال عظام
يقول:

ما زلت تحتلمين الدهر في جلد وتصبرين على كل الملمات
كم في جهادك من درس وموعظة ومن براهين للدنيا وأيات
والعروبة كم أعطيت من بطل جاز البحار بأحكام الرسالات

إن الانطباع الذي يحصل عند كل من يقرأ قصائد الشاعر جعفر ماجد التي
صاغها في حب القيروان هو شعور الشاعر بتغير القيروان فهو يذكر ويحن إليها
أيام صباه بينما ما يراه في شبابه وكهولته تحول إلى صورة أخرى أقل جاذبية
وإمتاع إن لم نقل باهتة ومختلفة إختلافا تاما عما كانت عليه من قبل يقول في
قصيدة (دمعتان) طالبا الصفح والمغفرة بعد طول غياب :

أتيت على رغم هذا الزمان فلا تبدئي اليوم يا قيروان
ولا ترفضيني ولا تغضبي علي ها هنا ... ألف شأن وشأن
لقد فرق الدهر ما بيننا وهل ذاق صفو الهوى عاشقان ؟
فلا تحسبي الغدر من طبعنا ومن فيض عينك نقتا الحنان
فما كان صد ... وما كان هجر إذن فاستريجي ... وما كان كان
إلى أن يقول في نبرة مأساوية حزينة مشحونة أسفا على ما آلت إليه وضعية
مدينته:

لقد أفقر الحي من أهله وخلاك للصمت هذا الزمان
فلم يبق سحر بتلك الكؤوس ولم تبق خمر بتلك الدنان
فلا ترفضيني ولا تغضبي إذا جئت أبكيك ... يا قيروان

ونستنتج من كل ما سبق أن للشاعر علاقة وجدانية مع مسقط رأسه وموطنه
وأن حساسيته المفرطة جعلته إلى جانب حبه الكبير يعيش حيرة مريرة عن حاضر

موطنه الذي افتقد إلى تلك البراعة والفرح والحب الذي عاينه وعاشه أيام صباه وتلك هي رؤية الشاعر الذي يرى ما لا يراه غيره من عامة الناس وهذا طبيعي لما يمتاز به من حساسية وشعور حاد في التعامل مع الوجود بصفة عامة .

الوطن

أما عن الوطن في المجموعة الشعرية (غدا تطلع الشمس) فيأخذ أبعاد عدة إذ نجد تداخلا كبيرا بين حب الوطن القطري الصغير وحب الوطن الكبير أي الوطن العربي وبين الوطن الأكبر أي الأرض بصفة عامة فهو تارة يغني لتونس الخضراء وطورا إلى وطنه العربي الكبير لقد أحب الشاعر بلاده تونس ككل وطني غيور فغنى لها أجمل الأغاني يقول في قصيدة (أحبك) :

أحبك ... لسنت أدري ما أقولُ وهل تكفي مفاصلتني فعولُ
وكم عيشت بأحلامي الليالي وهذا الحب باق لا يزولُ
عرفت الحب في شرق وغرب وتبعتني المكمل والكحول
فلم أعرف سواك أضاع عقلي وأن ضاعت الحسب العقولُ
. . . أحبك حيثما سرحت طرفي وهز مشاعري الحسن الأصيلُ
لأنك أصل ما حلو لعيني وأن الفرع تغذوه الأصولُ

ليس الصعب هنا أن نستشف قيمة هذا الحب الكبير الذي يعيشه الشاعر مع بلاده فهي حبيبته الأولى والأخيرة وهي الأصل في كل شيء فهي كامل أبيات القصيدة يراها في الجباه السمر التي يكللها العرق وهي تبني الأمجاد والرقى ويراه في ابتسامة الطفل وهو يرنو إلى الشمس عند الشروق الخ ، فهو يراها بختصار في كل أبعاد وجوده ومن فرط هذا الحب يعيش الشاعر حيرة دائمة إذ كيف يمكن له أن يشفى غليله من هذا الحب الذي أرقه وأضناه يقول في نفس القصيدة :

أحبك . . . يا بلادي غير أنني . أحب وأست أعرف ما أقول
فهذا الحب أكبر من حروفي وهذا الحب ليس له مثيل
وأعلم أنني أعطي حياتي بلا من إذًا ضمن البخیل
. . . ولكنني أحس بأن حبي وان فات المدى شيء قليل
فكيف ، فكيف أصنع يا بلادي ليشفى فيك بالفعل الغليل

ولأن الشاعر يجب بلاده كل هذا الحب فهو يرى أن مهمته الجوهرية هي غرس
هذا الحب في الأجيال القادمة حتى تكون أكبر حارسا لهذه البلاد التي أحبها
ولكي تفعل فيها إيجابيا من أجل نهضتها وشموخها ورفعة مكانتها ولهذا اختار أن
يتحدث شعرا إلى طفل في قصيدته (طفل على الشاطئ) وهو رمز الأجيال
الصاعدة ولا شك .

يقول:

لك هذا البحر ووزقته وسواء مشرقه الكوكب
وربي بالورد مكالة وحقول ليس بها ثعلب
لك أرضك وحدك تخدمها ولها من عزمك ما تطلب

ومع هذا الحب لوطنه يشعر الشاعر بالغربة النفسية القاتلة ويحس الخيبة تلو
الخيبة لما يراه من نكران لجميله وصدق وطنيته من البعض من بني وطنه يقول في
نفس القصيدة :

أنا ابنك الحر لا مين ولا كذب فكيف أحيا غربيا فيك يا وطني
وياكل الناس من قلبي ومن كبدي ويفرسون سهام الغدر في بدني
هذا عن حبه لوطنه القطري الصغير أما عن الوطن الكبير هذه الأرض العربية
التي تمتد من المحيط إلى الخليج فهو لا ينسى هذا الوطن بل يحمل كل مقوماته
الحضارية حتى وإن كان خارجه تماما يقول في قصيدة (سائح عربي في
باريس) مبرزاً إنتماؤه إليه :

يخيل لي أن كل العيون تعبرني عندما تنظرُ
أنا عربي هنا بينهم علامته لونه الأسمرُ
ونتيجة تردّي أوضاع وطنه العربي تراه يكتب عن إحساسه العام بالغربة الدامية
التي تلاحقه سواء كان خارج الوطن أو داخله حيث يقول :

أراني غريب على أرضهم وفي وطني غربي أكبرُ
إن عامل الغربة يعايش الشاعر باستمرار باعتبار أن التحولات الوطنية العربية لم
تكن حسب ما يرتضيه بل كانت تحولات سلبية أتت على نخوة الاعتزاز والافتخار
والامجاد فترسبت في أعماقه عوامل الاغتراب والتحسر على زمن مواساتها رغم
بشاعة حاضرها الموسوم بالتشتت والغدر والخيانة يقول :

يا بلادي لست مغلوقة شعبنا سلطانة قاهرُ
غير أن الغدر أودى بنا كيف يبقى بيننا الغادرُ
إلى جانب مكانة الموطن والوطن الصغير تونس والوطن الكبير الوطن العربي
يتجاوز الشاعر محدودية وجوده ليغني إلى الوطن الأكبر الأرض قاطبة فتصبح هي
الأخرى وطننا من أوطانه وبذلك يجسد البعد الإنساني الذي يغني للإنسان في كل
موقع ويعتبر الأرض وطننا للجميع في قصيدة (نهر الميكونغ)

... أواه من لعنة الأجيال لو علمت أنا قتلنا بأيدينا ضمائرنا
ان كلف الله نفسا فوق طاقتها فهذه الأرض قد باتت لنا وطننا
في خاتمة هذه الأسطر لا بد من الإشارة إلى أن موضوع الموطن والوطن
يحتل حيزا هاما في كل مجاميع الشاعر الشعرية وسوف نسعى جادين إن شاء
الله إلى كتابة دراسة معمقة عن مكانة الموطن والوطن في شعر الشاعر جعفر
ماجد الذي أثرى المكتبة الشعرية التونسية والعربية بما أنتج من ابداعات
تستحق التفاتة سريعة من النقاد والباحثين .

* المراجع :- مجموعة غدا تطلع الشمس للشاعر جعفر ماجد ، الشركة التونسية للتوزيع .

المكان والشخصيات والبناء في مجموعة « انتظار الرحلة المفلغة »

للقاص محمد المنصور الشقحاء

بقلم : إبراهيم بن سلطان

* تمهيد :

صدرت هذه المجموعة القصصية عن « نادي القصة السعودي » ، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض في طبعتها الأولى عام 1403هـ/1983م تقع في 138 صفحة من القطع المتوسط وتتضمن إهداء و 19 قصة رسم الغلاف للفنان فهد الربيق والرسوم التوضيحية لأحمد خويلجي . جاء في الإهداء : « إلى الإنسانية التي شاركتني الطريق منذ البداية .. » (1) سأتناول في هذه المقاربة النقدية : المكان والشخصيات والبناء القصصي .

1 - المكان :

نعني بالمكان المسرح الذي وقعت فيه أحداث القصة ، وقد يثير هذا المكان ذكرى أو يحيل إلى أيام الصبا أو قصة حب أو دليل تطور البلاد . قد يكون المكان مدينة (الطائف ، جدة ، الرياض ... أو قرية أو شارعا أو بيتا أو مكتبا أو شجرة وادي ...

(1) المدينة :

* الطائف :

يبدو حضور هذه المدينة عبر عديد قصص المجموعة قويا ربما لأنها مقر عمل وسكنى الكاتب أو لشدة تعلقه بها . جاء في قصة « الضياع » (2) : « الطائف تلك المدينة الجبلية ، التي يغرق فيها عشقا وهياما » (3) .

تتحدث هذه القصة (الضياع) على حب الشاب محمد لفتاة نورة ، أفترقا ، استقرت مع أهلها بالرياض ، تزوج غيرها ، ثم ها هو يبحث عنها ، يجدها ، يريد الزواج منها .. لقد أحبها منذ عشرين سنة ..

يقع حريق في الدار المقابلة (ربما حيث تسكن نورة) ، يلتهم الحريق ثلاثة أشخاص (لعلها من بينهم) .. فتسيل على خده دمعة ..

ونرى في قصة « الهدوء الممل » (4) « صالحا » الموظف بإحدى إدارات الطائف يشعر بالسأم :

« كل شيء يثير الملل ، صوت آلات النسخ يقرع سمعه في رتابة والأوراق المتناثرة على مكتبه تشعره بالسأم حتى في الدار صورة طبق الأصل .. فالقرف يلاحقه في كل مكان » (5) .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

تهيأ للموظف صالح أنه يعرف « العم سعد » الفراش العامل بمكتبه .. يقع حادث لفهد ابن الفراش فيستأذنه للخروج للاطمئنان عليه .. تذكر صالح حريقا شب منذ سنين بعيدة .. أحاط بشقة الفتاة (كوثر) .. يتهيأ له أن سعدا كان قد هب لإنقاذها .. ثم تزوجها بعد شهرين .. وانتقلا للسكنى والعمل بأكثر من مدينة .. حين يعود العم سعد يسأله صالح إن كان يعرفه ، فيجيبه بالنفي متابعا : « .. نزحنا من قرينتنا التي على طريق الجنوب والتي تبعد عن الطائف ثلاثين كيلو وأقمنا هنا .. وأول ما اشتغلت بناء .. وصبيا عند إحدى العوائل حتى توظفت منذ عشر سنوات » (6) .

وفي قصة « الانتماء » (7) التي حولها التلفزيون السعودي عام 1412 إلى مسلسل بعنوان « مسافر بلا زاد » ينزح الفتى ابراهيم من الجنوب ليستقر

بالطائف : « اتخذ إبراهيم الفتى الفر المهاجر من الجنوب إلى الطائف انثى كانت أول مدينة توقفت فيها السيارة التي ركب فيها خلسة في المساء مع مجموعة من الركاب الوافدين » (8) ، فيعمل لدى إحدى الأسر ، وينسب « السيد » إليه ، يموت ويترك له ثروته .. تثار أسئلة من طرف أبناء « السيد » حول مدى صحة انتماء إبراهيم إلى أبيهم .. ويرحل إبراهيم إلى الجنوب حيث أبوه وإخوته وزوجة أبيه التي صارت عمياء .. ويعود إلى الطائف بما يثبت هويته ويتنازل عن الثروة ويبدأ مع زوجته وأبنائه من جديد بكل شموخ وأنفة ..

ونجد ذكرا للطائف في قصة « الموت » (9) ، فالراوي هنا يحب فائقة ، تنتقل مع أسرتها من الطائف للسكنى بالرياض ، يلتحق بها قبل اجتيازه إمتحان الشهادة الثانوية بأسابيع معدودة ، يتوظف هناك ، يطلب يدها ، تظل تماطله .. تدعوه إلى نزعة .. وخلال هذه النزعة بأحد الأحراج المحيطة بالمدينة تموت ويعلمه والدها فيما بعد أن لها « حساسية من الأشياء الخضراء ، وبعد دفنها يجمع أغراضه ، ويعود إلى الطائف : « .. عدت منذ أيام إلى مرتع صباي .. وموطن أحلامي ... » (10) وقبل أن يقرع باب مسكن والدته ، يقول : « أخرجت من جيبي حافظتي وأخذت أتأمل صورة فائقة ثم مزقتها ونثرتها فوق الرصيف ... » (11) .

هاهو يتجول بربوع مدينته .. « قادتني خطاي حتى أوصلتني أخيرا أمام دار سينما صغيرة .. كنت أحد روادها المدمنين عندما كنت طالبا في المرحلة المتوسطة والثانوية » (12) .

يقول عن هجرته الطائف بعد أن انتقلت فائقة مع أهلها إلى الرياض : « ولكي أكون عند حسن ظنها هجرت مدينتي .. فقد أحيل والدها إلى التقاعد ولم يعد هناك رابط يدفعه للبقاء في الطائف .. هجرت مدينتي عند أول رسالة وصلتني منها تاركا مدرستي وكتبي .. » (13) .

كما تبدو الطائف جلية في قصة « الانفصال » (14) ، « عبد الرحمان » و « سمر » متحابان رغم فارق المستويين المادي والثقافي بينهما (لصالح سمر)

ها عبد الرحمان يعود من « جدة » - حيث يجري دورة تدريبية على بعض الأجهزة - متحدثا عن الطائف وتعلقه بفائقة : « كلما اقتربت الأضواء كان وجيب قلبه يرتفع لا شيء يشده لهذه المدينة التي تتلألأ أنوارها من بعيد سوى ذلك الحب الذي يعيش في أعماقه كطفل لا يدري ماذا يفعل رغم تخطيطه سن الرشد » (15) .

ثم يصف ترقبها : « إنها الآن تقف في شرفة دارهم تنتظر أويته في نهاية كل أسبوع . لقد غدا الآن دورها في الانتظار بعد أن كان هو ينتظر نهاية كل أسبوع لمشاهدتها ، ها هي الصورة تنعكس .. وبعد أن تم فتح الكلية التي تدرس بها في الطائف » (16) .

ويتزوج عبد الرحمان « زينب » ابنة خاله استجابة لطلب أمه (فالخال يريد بهذا التعويض عن تقصيره إزاء أخته وصفارها حين كانوا في حاجة إليه ..) تنهار سمر عند سماعها الخبر ..

يختفي عبد الرحمان مع زوجته ، أمه لا تعرف مكانه لكن لها إحساسا بأنه سيعود .. تتزوج « سمر » أحد أصدقاء أخيها يوسف .. تعود معه ذات ليلة فتري شخصا مكوما تحت عمود نور الكهرباء (هو عبد الرحمان !) تطل من نافذتها ، يهب واقفا مبتعدا وسيارة الشرطة تقوم بجولتها العادية للحفاظ على الأمن ..

كما تبرز هذه المدينة في قصة « أوراق من مذكرات رجل في الخمسين » (17) نرى عبد الرحمان (آخر) قد بلغ الخمسين من عمره ، يتذكر وفاة والده وزواج أمه بشخص آخر ونزوحه إلى الطائف : « استقر عبد الرحمان في الطائف المدينة بدون أضواء لعله يجد في الطرقات المهجورة رفيقا يشاركه وحدته » (18) .

ويذكر طيف فائقة (أخرى) وإشراف شقيقه الأكبر على تربيته وشغله .. يذهب إلى دار « السيد » لجلب جريدة ، يجده نائما .. يدفن رزسه في صدر زوجة السيد وهو المراهق « في الخامسة عشرة من عمره ... » (19) .. يتوظف ، تأتي المرأة (وقد بلغت الأربعين) المدرسة سائلة عن نتائج ابنها ، يتذكرها ابنها ،

يتذكرها ، تخرج .. يتبعها ، >> .. لمحته وهو يسير خلفها فأبطأت من خطواتها حتى حاذاها واختفى الاثنان في أول منعطف قابلهما .. >> (20) ..

* مدينة الرياض :

تبدو العاصمة الرياض مدينة بعيدة ، يرحل إليها الأحبة فبتلعمهم ، يلحق العشاق بمن يحبون باحثين عنهم في دروبها المتشعبة . إنها مدينة كبيرة .

نرى في قصة >> الضياع >> (21) رحلة محمد مقتنيا أشار حبيبته نورة : >> سافرت قبل أن يرحل وتغيرت وجهة سفره . قضى أربعة أشهر بجدة ثم توجه إلى الرياض . حيث يجهل كل شيء ووصف باهت لموعده كان مقررا أن ينفذ منذ زمن طويل .. أخذ يتجول في الشارع باحثا عنها وأخذ يقلب دليل التلفون باحثا عن اسم والدها .. >> . لعلها ضاعت في زحام هذه المدينة : >> لقد تلاشت في الزحام وما هو يقف وحيدا يتلفت في بلاهة وحزن قد يجدها .. >> (23) ثم يواصل : >> كان يبكي في داخله ، دموعه تتساقط في أعماقه وصوتها يقول :

— هناك شارع جانبي يؤدي إلى حي المربع وفي ذلك الحي شئال عن مسكننا ، إنها حارة صغيرة .. إنه شارع الوشم >> (24) .

<http://Archivebeta.Sakni.com>

كما نجد الرياض مسرحا لبعض أحداث قصة >> انتظار الرحلة المlfاة >> (25) ، والتي تحمل المجموعة عنوانها .

في هذه القصة علاقة حب ربطت منى بصالح ، ثم التعارف ذات يوم عندما ضاقت سيارة والدتها بموقف السوق . اعتذر له أخوها ، تكونت صداقة بينهما ، تعرفت منى وصالح إلى بعضهما ، تحابا .. تزوجها ابن عمها فصدمت بذلك . اكتشفت كذب زوجها .. أعطت سائق سيارة أجرة موعدا (>> في الحادية عشرة ليلا >>) ، يجيء في الموعد ، يلتقي بزوجها أمام باب المنزل ، تقع مشادة بينهما ، يقول له ولعله السائق) :

— >> وهل أنت على موعد معها ؟ >> (1) (26) ..

وتوجد منى بفراشها مخدرة ، تنقل إلى المستشفى .. قال الراوي قبل ذلك

متحدثاً عن سفر أسرة منى إلى الرياض وزواجها من ابن عمها : « فإذا بكل شيء ينهار بمقدم ابن عمها . وتسافر مع أسرتها إلى الرياض للإقامة هناك . لاشيء كان يشدها إلى ابن عمها سوى رابطة الدم وإصرار والدها على أن يجازي أخاه الأكبر خيراً لقاء قيامه على شؤون الأسرة عندما غاب والدهم منذ ثلاثين عاماً عن الوجود » (27) .

فالرياض هنا صارت مكان تفريق شمل المحبين . في هذه القصة كما في قصة « الانفصال » نرى بعض الآباء يرضون بعض الأقارب أو يلبون رغباتهم على حساب سعادة أبنائهم ، فالأم طلبت من ابنها عبد الرحمن في قصة « الانفصال » الزواج من ابنة خاله زينب ثلثة لرغبة الخال وفي هذه القصة (انتظار الرحلة الملقاة) يزوج الأب ابنته منى بابن عمها مجازاة للآخ الأكبر ..

.. ها محمد بالمطار ينتظر قنوم منى .. « وشعر بحركة في المطار فنهض من مكانه واقترب من موظف الاستعلامات :
— طائرة الرياض متى تصل ؟
— أُلغيت الرحلة ...

وخرج لا يلوي على شيء ... كان ذلك منذ أربعة أعوام » (28) . ثم يضيف الراوي : « فرحلتها الملقاة لم يحدد لها موعد وهي لم تتصل به حتى تخبره بالجديد ... » (29) ، و « كانت الصدمة كبيرة بالنسبة لمنى ووالدها ووالدتها عندما أُلغيت الرحلة وتأجل السفر .. أيضا الفرح الذي كانت ذاهبة مع أسرتها لحضوره أُلغي لأسباب خارجة عن الإرادة » (30) .
لعل إلغاء الفرح بسبب إلغاء الرحلة (أي الانتقال من المكان مقصود من طرف الكاتب) .

وجاء في قصة « الموت » (31) : « وفي زحام الرياض وجدت عملاً بسيطاً إذ لفت نظري في صحيفة اقتنتيتها صدفة عنوان عن وظائف شاغرة .. » (32) .

ويذكر التزام الراوي بوعده لفانقة: «اكتفيت بتأكيدي على التزامي بوعدي .. وهو أخذها إلى أحد الأحراج المحيطة بالمدينة (الرياض) .. حيث تمنى نفسها بقضاء لوثوان في ظل شجرة برية أو الضياع في طريق ضيق تحيط به الأشجار تمرح فيها مع أحلامها وأمانيتها » (33) .

* مدينة جدة :

يرد ذكر مدينة جدة في قصة « الضياع » : « سافرت قبل أن يرحل وتغيرت وجهة سفره . قضى أربعة أشهر في جدة » (34) و « لكن ما إن صار شهر على ذلك حتى تم انتدابه من قبل عمله إلى جدة لقضاء عام في دورة الأجهـزة الجديدة التي سوف يتم استخدامها في مواقع العمل » (قصة الانفصال) (35) ويرد في قصة « الهدوء الممل » ذكر مدينة يلطمها البحر : « كان ذلك منذ عشرين سنة وفي مدينة بعيدة حيث كان البحر يلطم الشاطئ بصورة يومية » (36) ، فلعلها مدينة جدة .

* القاهرة :

يرد ذكر هذه العاصمة الكبيرة في قصة « الدوامة » (37) ، جاء صالح عبد الرحمان القاهرة باحثاً عن زوجة ، هاهو بمطارها : « كانت البداية فكرة صغيرة لم يدر كيف حضرت . إنما وجد نفسه في ساحة مطار القاهرة يتلفت باحثاً عن سيارة أجرة تنقله إلى أقرب فندق » (38) ، ثم يقول عن القاهرة : « إنها المدينة الساهرة ذات الأنف والعيون الثلاث ، الأضواء تشد الانتباه والزحام يزدع الفزع في الأعماق » (39) ..

ويقيم صالح عبد الرحمان بفندق مع اثنين من مواطنيه .. ثم تزوج بفتاة مصرية (فائزة) بعد أن أوهم أهلها بأنه موظف كبير .. ويعلمها فيما بعد بالحقيقة .. يأتي قريبها « محمد » (أستاذ متعاقد) ليقيم عنده في انتظار قدوم زوجته .. يشك الزوج صالح عبد الرحمان في وجود علاقة ما بين زوجته ومحمد .. تأتي زوجته وابنهما .. تتخاصم مع زوجها محمد ، تعود إلى مصر ويظل الابن عنده (وعند

صالح عبد الرحمان) .. وتضع زوجة صالح ولدا عند أهلها بمصر .. يسرق منزل الأستاذ محمد وهو يستعد للعودة إلى مصر ، فيفتقد عشرة آلاف ريال وأشياء أخرى صغيرة .. ثم يقع له حادث مرور فيموت وينجو ابنه من الموت ..

(2) مدن أخرى :

وقع ذكر مدن أخرى نون الإشارة إلى أسمائها ، بعضها يبدو فيها شبه بالطائف .

جاء في القصة « أشياء صغيرة » (40) : « كانت ليلة كل شيء فيها هادئ رغم الأتنين المكتوم الذي تنقله الرياح لمكانن الكهرباء التي تقبع في ضاحية المدينة والبرد القارس يلف الشوارع وقد هجرها المارة .. وحركة الصيف العارمة .. » (41) .

أ يكون هذا دليلا على أنها الطائف عروس المصائف ؟

وفي قصة « البحث عن عيبر » (42) ، نرى الكاتب « ياسر » - وهو متزوج - يعمل بمكتب إحدى الجرائد بالمدينة .. تتصل به الفتاة « عيبر » هاتفيا ثم شخصيا فيما بعد مع أمها وشقيقها تمده ببعض كتاباتها يطالعها يحاول تهذيبها ونشر بعضها .. ثم كانت لقاءات قصيرة معها أمام منزل أبيوها .. قبلته آخر مرة .. كانت تهديه أحيانا قارورة عطر أو شريط أغنيات .. ثم اختفت وظل يبحث عنها .. لعل الشاهد التالي يبرز أن جو هذه المدينة هو الطائف على ما يبدو :

« فأجابتني غائمة في السحاب الذي يلبد مدينتنا كل خريف لأنه سحاب خير ، وأنا أنتظر هذا الخير ذات يوم . لأشعر بالارتياح فأجد نهاية القصة فأعيد كتابتها من جديد » (43) .

وجاء في قصة « بنون هوية » (44) أن خالدا « صديق الاثنين (الموظف الراوي وزميله فريد) وصاحب سيارة الأجرة يتجول بها بعد نهاية الدوام داخل المدينة باحثا عن لقمة عيش .. » (45) .

كما أن أحداث بعض القصص الأخرى من الصنف الذي لا يقع إلا بالمدينة كما

في قصة « النتائج المرتقبة » (46) و « الرغبة » (47) و « عبث الحياة » (48) و « الوفاء » (الصورة الأولى والصورة الثانية) (49) و « الصراع » (50) .

جاء في قصة « أوراق من مذكرات رجل في الخمسين » متحدثا عن الاخ المنجذب نحو أضواء المدينة : « .. وانتقل أخوه إلى مدينة أخرى .. » (51) .

(3) أضواء المدينة :

نرى العديد من سكان القرى البعيدة (خصوصا في الجنوب) ينجذبون للعيش في المدينة .

فإبراهيم في قصة « الانتماء » نزع من قريته إلى مدينة الطائف وقد حاول في البداية التنصل من انتمائه إلى قريته : « وتقبل كل عمل يسند له محاولا التنصل من انتمائه إلى تلك القرية الفارقة في التخلف والظلام » (52) .

كما أن العم سعدا الفراش في قصة « الهدوء الممل » يخبر صالحا أنه جاء من قريته بالجنوب : « .. من يوم كنت في العاشرة من عمري نزعنا من قريتنا التي على طريق الجنوب والتي تبعد عن الطائف ثلاثين كيلو وأقمنا هنا .. » (53) ويبدو أن عبد الرحمان في قصة « أوراق من مذكرات رجل في الخمسين » قدم هو أيضا من قريته إلى المدينة :

« استقر عبد الرحمان في الطائف المدينة الحاملة .. » (54) .

ونرى في قصة « أشياء صغيرة » أحمد الموظف الجديد بالبريد والذي يتغيب زميله فيعمل وحيدا حالما « بهيام » بالعمارة المقابلة ..

يفادر عمله قبل نهايته بدقائق ، يأتي أشخاص ، يجدون المكتب شاغرا فيرفعون شكوى إلى الوزارة ، يتم تحقيق في الإخلال بالواجب ويفصل أحمد فيشعر بأماله تنهار وتتبدى له صورة قريته وأطراف الأهل بعيدة ..

جاء أحمد من قريته إلى المدينة للعمل وبين الجوانح أحلام : « وأخذ يهتم كيف لهذه السنة التي عشتها على روحي وذاتي في أرض بعيدة عن داري خلفا

ورائي أما دامعة وأسرة تتطلع في وله .. وتترقب عودتي وقد نلت الآمال .. »
(55) . ثم يواصل متحدثا عن نفسه :

« .. فتى بائس حرمه القدر نعمة الراحة النفسية فأغرق نفسه في لجاج الحياة ..
مبتعدا عن مراتع طفولته ورفاق صباه ليعيش مرحلة من مراحل الحياة . مرحلة
المسؤولية والاعتماد على النفس تنهار فجأة ، بكل بساطة » (56) .

وجاء بقصة « يوم بنون ساعات » (57) : « واستقر الحديث أخيرا أن
« هاشما » شاب غير طبيعي تصيبه نوبة من الانفعال غير الشعوري .. وذلك من
جاء حادثه خطف تعرض لها وهو في السابعة من عمره عندما كان في قريته »
(58) .

4) بعض مظاهر تغير الحياة بالملكة وتطور العمران بها :

نلاحظ عبر تتبعنا قصص المجموعة أن الكاتب لم يغفل عن ذكر بعض مظاهر
تغير الحياة بالملكة وخصوصا تطور العمران .

جاء في قصة « انتظار الرحلة الملقاة » :
« لم يلاحظ (سائق سيارة الأجرة وصديق مني سابقا) وهو يأخذ أجرة المشوار
أنه يقف أمام الدار التي كانت منذ سنوات سبع من الطين والخشب . وكان يأتي كل
مساء الساعة الحادية عشر للقاء جديد . نسي كل شيء من ذلك وقد أصبحت
الدار عمارة شاهقة لها باب حديد .. وأضواء تضيء عمدة الشارع » (59) .
وجاء في قصة « الانفصال » :

« كان الشارع منذ عشر سنوات رمليا .. والبيوت التي على جانبه من الطين وذات
النور الواحد أما دارها (سمر) فقد كانت حديثة ومكونة من نورين ذات ألوان
جذابة وواجهة إسمنتية حديثة » (60) .

و« زرعت الأيام الطريق الذي أصبح معبدا . تحف بجوانبه البيوت ولم يبق من
البيوت الطينية سوى القليل التي هجرها أصحابها واتخذها الآخرون مكانا لربط
مواشيهم وعمرى لنفاياتهم » (61) .

و « .. الشارع الذي أصبح الآن مرصوفا بشكل جميل تحف بجوانبه الأشجار
وقد أضاعت الأعمدة الطويلة البيضاء كل زواياه » (62) .

وقال في قصة « أوراق من مذكرات رجل في الخمسين » متحدثا عن « وادي
وج » وبعض مظاهر الحياة على جانبيه :

« تتأمل (فائقة) كل شيء سوى ذلك الفراغ الهائل الذي يمتد أمام ناظريها من
الوادي الذي كان في تلك الأيام موطننا للكلاب المسعورة .. » (63) .

ويتابع بعد ذكر تأسيس عبد الرحمان مع بعض أصحابه فريق كرة قدم :
« أخذ عبد الرحمان يتسلل إليهم كل مساء عبر الطريق الطويل الذي يخترق وادي
وج حيث كان الأهالي يلقون ببقاياهم . ويمثل جزء منه عشاشا من الخشب وألواح
زلك كمساكن لبعض الأسر الفقيرة النازحة من الجنوب »

إن تغير بعض مظاهر المكان (وتطور العمران) يحيلنا إلى الزمان فنذكر بذلك
ازدهار الحياة بالمملكة خلال هذا القرن (الميلادي) وخصوصا بعد اكتشاف الثروة
النفطية وبكميات تجارية معتبرة في العقود الأخيرة <http://Ar>

5) أماكن أخرى :

قد تكون الامكنة مكتب عمل أو شارعا يحمل ذكرى أو شجرة أو منزلا تجري به
أحداث أو غيرها ..
* مكتب :

جاء بقصة « النتائج المرتقبة » : « اعتذر خالد عن مواصلة العمل ، قدم
استقالته بعد غياب خمسة عشر يوما ..

وضع زملاء في المكتب في حرج فهناك بعض الأوراق الضائعة ورسوم لبعض
الإجراءات التي استلمها ولم يقم بإيرادها إلى الصندوق وكان المازق أكبر من كل
من في الإدارة » (65) .

وجاء في قصة « أشياء صغيرة » : « وأخذ يتلمل في مقعده ثم نهض ،

لقد صمم على مغادرة المكتب رغم بقاء دقائق على نهاية فترته >> (66) .
وجاء في قصة >> 24 ساعة بنون هوية >> : >> الوقت (بالمكتب) يمر معلا
والأحاديث كما هي منذ ألف عام وأوراق يحرق عليها ومعاملات لا يجد في الإجابة
عليها ميرا >> (67) .

* شارع :

جاء في قصة >> الضياع >> ما يشير إلى أن الشارع دليل المحب إلى بيت من
يحب : >> هناك شارع جانبي يؤدي إلى حي مربع إنه شارع الوشم .. >> (68)
وقال في قصة >> يوم بنون ساعات >> متحدثا عن محاولة بوليس النجدة والإطفاء
اقتياد هاشم (المخبول) إلى مركز صحي والناس يتابعون ذلك : >> ارتفع صراخ
الجماهير المكتومة في الشارع منذ ثلاث ساعات .. >> (69) .

وجاء في قصة >> أشياء صغيرة >> متحدثا عن مغادرة أحمد موظف البريد
مكتبه : >> وانطلق يسير في الشارع الطويل >> (70) .

وجاء بقصة >> الانفصال >> متحدثا عن بقاء >> سمر >> بعد زواجها بنفس
الشارع : >> .. لتبقى هنا في ذات الشارع >> (71) وربما وفاء لذكرى هذا
الشارع الذي عاش بعض أطوار قصة حبها لعبد الرحمان .
* الطريق :

تكرر ذكر الطريق عدة مرات دليلا على السفر والترحال أو بعد المنى وطول
السعي في هذه الحياة أو رحيل الأحبة وانطواء ذكريات بعيدة .

جاء في قصة >> الموت >> : >> .. وأنا في طريق عودتي إلى الطائف .. >> (72)
>> .. لكن كان الطريق طويلا >> (73)

وجاء في قصة >> انتظار الرحلة الملقاة >> : >> الطريق طويل .. والأحداث
اليومية تلهب المشاعر .. >> (74)

ثم : >> لقد كان الطريق طويلا .. وغدت المحطة التي التقى فيها الاثنان في عالم
النسيان >> (75) .

* دار السينما :

جاء بقصة « الموت » : « قادتني خطواتي حتى أوصلتني أخيراً أمام دار سينما صغيرة .. » (77) .

* شجرة :

جاء بنفس القصة السابقة : « كنا بمفردنا لا أحد يجاورنا ، وبينما نحن كذلك إذ قرعت سمعي أنه مكتومة منبعثة من واء الشجرة التي وراءها حاجياتنا... » (77) .

* المنزل / المستشفى :

قالت الزوجة « حنان » لزوجها فريد متحدثه عن جارتها في قصة « 24 ساعة بدون هوية » :

— « لقد ولدت في المنزل لكن حدث لها مضاعفات وتم نقلها إلى المستشفى بعد أن أغمي عليها » : (78) .

وجاء في قصة « الموت » : « عدت متأخراً إلى المنزل الذي أستأجر به شقة صغيرة مكونة من غرفة ومطبخ ، لقد كنت سعيداً » : (79) .

وجاء بقصة « أشياء صغيرة » « سرح بطرفه من النافذة المفتوحة في هذه اللحظات مخترقاً الظلام الذي يلف مدخل العمارة المقابلة ذات الباب الموارب .. » (80)

وجاء في قصة « أوراق من مذكرات رجل في الخمسين » : « كانت فائقة ذات الربيع الرابع عشر في بلكونة دارها كالعادة » (81) ، « وذات يوم التقى الاثنان . كانت تقف أمام باب الدار .. » (82) .

* مرفأ / الجدران :

قال الراوي في قصة « الانفصال » متحدثاً عن عيون الرقيب : « مجسداً زورق يبحث عن مرفأ أمين بعيد عن العيون - وكيف يكون هذا المرفأ وكل الجدران عيون ؟ » (83) .

* الجنة :

الجنة هنا هي مكان لقاء المحبين ودنيا الأحلام والسعادة : جاء بقصة « أسطورة حب » : « فأخذت (منى) تحلم بأنها الأميرة النائمة وأنها ذات الشعر الذهبي التي تقف كل مساء في نافذة غرفتها مترقبة قدوم فارس أحلامها من خلال السحب فوق حصان أبيض لخطفها والهرب بها إلى جنة الأحلام . » (84) .

* الوادي :

جاء ذكر « وادي وج » بالطائف في قصة « أوراق من مذكرات رجل فسي الخمسين » : « يتسلل إليهم عبر الطريق الذي يخترق وادي وج » (85) .

* الجبل :

الجبل في قصة « الصراع » مكان يقصده خالد هرويا من ضوضاء المدينة : « يصعد الجبل باحثا عن مكان يجلس فيه ليفكر بعيدا عن ضوضاء المدينة وصخب الشوارع » (86) .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

* المدرسة :

جاء بنفس القصة السابقة :

« هرب عبد الرحمان من المدرسة بعد أن فشل ثلاث مرات في الامتحان » (87) وجاء بقصة « أسطورة حب » متحدثا عن بداية تعلق إبراهيم بمنى : « كان إبراهيم يقف على الطريق التي تذهب من خلاله منى كل يوم إلى المدرسة ويعود لإيصالها إلى المنزل دون أن يتفوه بكلمة » (88) .

المكان - كما تقدم - هو مسرح أحداث وهو ذكرى لوقائع سابقة وهو تعلق بالأرض وهو إشارة إلى تغير الحياة بالملكة وتطورها ، ويبدو أثر المكان عميقا في نفس الكاتب (خصوصا لما يتعلق الأمر بمدينة طائف)

بالأرض وهو إشارة إلى تغير الحياة بالمملكة وتطورها ، ويبدو أثر المكان عميقا في نفس الكاتب (خصوصا لما يتعلق الأمر بمدينة الطائف) ، والمكان يحيل إلى الزمان (التاريخ) ، والأحداث تغفو ذكريات « والذكريات جميلة وأجمل منها أن تقف في يوم من الأيام لتقول شيئا يلطف من واقع الأيام الكئيبة » كما جاء بقصة « الضياع » (89) .

ب - الشخصيات :

كما هو معلوم فإن الحدث والشخصية يعتبران من أهم عناصر القصة القصيرة بالإضافة إلى الإطار الزمكاني والبناء واللغة ..
والشخصية قد تكون جاهزة (مكتملة منذ البداية) أو نامية (تشهد تطورا تدريجيا في الموقف أو المواقف) ، ممثلة أو باهتة .
فكيف بدت شخصيات قصص المجموعة ؟

جاء أغلبها جاهزا باهتا وأخرى تبدو غير مكتملة البناء والوضوح لا تلمس لها حضورا قويا يجعلنا نخرج عنها بصورة وأقية بعد قراءة القصص قد يقول أحدهم هذا شأن شخصيات القصص القصيرة ولكن هذا لا ينفي إمكانية إعطاء هذه الشخصيات بعض المميزات .

قليلة هي الشخصيات التي يبدو لها حضور وتأثير على مسار القصة كشخصية « إبراهيم » في قصة الانتماء حيث نراه فتى نازحا من الجنوب إلى مدينة الطائف .. يعمل لدى إحدى الأسر محاولا التنصل من انتمائه إلى قريته .. ويموت « السيد » ويترك ثروته لإبراهيم .. ثم يعود إلى قريته ليأتي بما يثبت هويته (أي انتمائه لقريته التي حاول التنصل منها سابقا) ويتنازل عن الثروة ويبدأ مع أفراد أسرته من جديد في شموخ .. تعتبر هذه القصة (الانتماء) - في رأيي - أفضل قصص المجموعة .

كما نلاحظ حضورا قويا لشخصية « نورة » في قصة « الضياع » التي تفرض على

تفرض على الشاب « محمد » شخصيتها فيسعى بإحاثا عنها تدفعه نحوها عاطفة جياشة ، يقول في مطلع القصة : « إنني أحبها .. » (90) . كما تشد القارئ شخصية « المرأة الحسنة » التي رفضت إغراء السيد « فاضل » في قصة « عبث الحياة » (91) رغم محاولاته المتكررة ونفوذه على زوجها ..

صحيح أن للشخصيات أسماء وماضيا وحاضرا لكن نادرا ما نعرف أفاقها أو تركيبها النفسية وعقدها كشخصية « هاشم » (المخبول) في قصة « يوم بدون ساعات » وإبراهيم - مرة أخرى - في قصة « الانتماء » .

ج - حول البناء :

نعني بالبناء طريقة تقديم حدث أو أحداث القصة وتفصيلاتها من طرف الكاتب . من أي لحظة انطلق ؟ هل اتبع السير المنطقي لأحداث القصة فجاء البناء خطيا رتبيا ومملا أحيانا ؟ أم انطلق من لحظة تأزم الحدث ، من نهايته ، من منتصف سيره فجاء البناء دائريا ؟

علما وأن بعض الكتاب يعمدون إلى تهشيم الحدث وتفكيكه وعلى القارئ جمع شظاياها لتأليف صورة متكاملة للقصة أي يعيد بناؤها من جديد .

لقد اعتمد الكاتب في قصصه البنائين الخطي والدائري . جاء البناء في قصة « الانفصال » (92) خطيا إذ بدأ بذكر حب عبد الرحمان لسمر ، ثم زواجه من زينب ابنة خاله ، وزواج سمر من أحد أصدقاء أخيها يوسف ..

كما جاء البناء خطيا في قصة « اللوامة » (93) ، يرحل عبد الرحمان (آخر) إلى القاهرة ، يتزوج بامرأة مصرية ويعود إلى الوطن ، يأتي الأستاذ محمد قريب زوجته ويقيم عنده في انتظار قدوم زوجته ، تأتي زوجته وابنه ، يتخاصمان ، تعود إلى مصر وتترك له ابنها ، يسرق بيته ثم يقع له حادث (أي الأستاذ محمد) ويموت ..

أما في قصة « الانتماء » (94) فقد جاء البناء دائريا إذ ينطلق المؤلف من لحظة تأزم

لحظة تأزم وضع إبراهيم بعد موت « السيد » مستعملا تقنية الاسترجاع الفني (الفلاش باك) فيكشف ماضي إبراهيم ، كما استعمل هذه التقنية في قصة الهدوء الممل « (95) عندما حاول الموظف صالح تذكر متى وأين رأى « العم سعد الفراش » وما وقع منذ عشرين سنة ...

كما جاء انبناء دائريا في قصة « الموت » (96) ، يعود الراوي إلى الطائف بعد موت « فائقة » ويستعرض لنا حبه بها وسفره إلى الرياض للحاق بها ثم موتها..

ألاحظ بعد هذا أنه يصعب أحيانا المسك بأحداث بعض القصص ومتابعتها كقصة « انتظار الرحلة المفلغة » (97) .

* الخاتمة :

حاولت في هذه القراءة إبراز أهمية المكان في المجموعة حضورا وتعلقا ومؤشرا لتقدم الحياة بالملكة وازدهار العمران كما تطرقت دون إسهاب إلى الشخصيات والبناء القصصي .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

* المصدر :

| | |
|-----------------------|---|
| (1) الإهداء ص 7 | (12) الموت ص 99 |
| (2) قصة الضياع ص 43 | (13) الموت ص 101 |
| (3) قصة الضياع ص 49 | (14) الانفصال ص 107 |
| (4) الهدوء الممل ص 23 | (15) و (16) الانفصال ص 107 |
| (5) * * * ص 23 | (17) أوراق من مذكرات رجل في الخمسين ص 121 |
| (6) * * * ص 27 | (18) أوراق من مذكرات رجل في الخمسين ص 121 |
| (7) الانتماء ص 91 | (19) * * * * * ص 124 |
| (8) * ص 91 | (20) * * * * * ص 126 |
| (9) الموت ص 99 | (21) الضياع ص 43 |
| (10) الموت ص 99 | (22) الضياع ص 45 |
| (11) الموت ص 105 | (23) و (24) الضياع ص 46 |

| | |
|----------------------------------|---|
| (56) * من 124 | (25) انتظار الرحلة الملقاة من 75 |
| (57) يوم بدون ساعات من 16 | (26) انتظار الرحلة الملقاة من 79 |
| (58) * من 46 | (27) و (28) انتظار الرحلة الملقاة من 76 |
| (59) * من 51 | (29) و (30) انتظار الرحلة الملقاة من 77 |
| (60) * من 124 | (31) الموت من 99 |
| (61) * من 113 | (32) الموت من 105 |
| (62) * من 105 | (33) الموت 104 |
| (63) * من 101 | (34) بدون هوية من 15 |
| (64) * من 75 | (35) بدون هوية من 18 |
| (65) * من 79 | (36) النتائج المرتقبة من 9 |
| (66) * من 99 | (37) الرغبة من 29 |
| (67) * من 101 | (38) بحث الحياة من 37 |
| (68) * من 21 | (39) الوفاء 1 و 2 : الصورة الاولى |
| (69) * من 103 | والصورة الثانية من 55 و 61 |
| (70) * من 133 | (40) الصراع من 127 |
| (71) و (72) * من 123 | (41) * من 120 |
| (73) * من 108 و 109 | (42) * من 92 |
| (74) * من 116 | (43) * من 27 |
| (75) * من 123 | (44) * من 121 |
| (76) * من 127 | (45) * من 135 |
| (77) * من 125 | (46) * من 134 و 135 |
| (78) * من 116 | (47) يوم بدون ساعات من 51 |
| (79) * من 48 | (48) يوم بدون ساعات من 53 |
| (80) * من 93 | (49) * من 80 |
| (81) بحث الحياة من 37 | (50) * من 107 |
| (82) الانفصال من 107 | (51) * من 109 |
| (83) النومة من 67 | (52) * من 103 |
| (84) الانتماء من 91 | (53) و (54) * من 123 |
| (85) الهدوء الملل من 23 | (55) * من 9 |
| (86) الموت من 99 | |
| (87) انتظار الرحلة الملقاة من 75 | |

المخطوطات التونسية بالمغرب من خلال المجلات المغربية وأعمال الباحثين

بقلم : محمد الصادق عبد اللطيف

اهتمام العلماء بامتلاك الكتب المخطوطة والنادرة غاية من اشرف الاهداف العلمية إذ هي تصون تلك النفائس وتحفظها من التهريب والاتجار بها ثم إفادة الغير بها إذ اعلقت همّة أحدهم بالاستفادة منها والافادة بها ولعل مزاحمة المستعمرين ورجال الاستشراق أكدت الحرص الشديد من طرف علماء العربية ورجالاتها وحمايتها حتى يكون لهم أكبر قسط من تلك المخطوطات وحفظها في الخزائن الخاصة والعامة حفظا لها من التهريب وحفاظا على أصالتها وبورها وذلك امتلأت تلك البيوت - بيوت الوجهاء خاصة وبيوت المكتبات العامة بطائفة مختارة من خيرة تراث العربية الإنساني وتعددت المصنفات الفقهية والأدبية والفلسفية والروحانية النقدية والمعارضات والتعاليق والمختصرات الفكرية عموما ووجدنا حفاظ المكتبات العمومية يحرصون على الاستفادة وتزويد خزائنهم بنتف من تلك المصنفات للتباهي بها أولا ثم حتى يكون للمكتبة اعتبار علمي مميز في نظر الباحثين ورجال القلم .

وقد حرصت المكتبة المغربية من هذه الوجهة ، على جمع طائفة مختارة من عيون الكتب المحفوظة وجمعت بصفة خاصة ذخائر مختارة من المخطوطات التونسية - روحا ونصا - زينت بها مكتباتها العامة لتكون تلك قبلة الباحثين ومنارا لرجال الأعمال الفكرية عموما وقد أسعدت شخصا حيث لاحظت الاهتمام الجيد والأصيل بجمع لائحة تلك المخطوطات وترقيمها لتكون ككشف مرقم لعلها تهدي من يشاء إلى محتوياتها والفضل في ذلك يرجع للمؤرخ المغربي الأصيل الأخ :

(محمد المنوني) الذي صرف الكثير من وقته وجهده للجري وراعا والبحث عن مؤلفيها ووصف تلك المخطوطات وذكر من تحدث عنها وإن كان ذلك الحرص الشديد يثير في أنفسنا بعض التساؤلات أجدر أن توجه لوزارة الثقافة التونسية وإدارة المكتبات وقسم المخطوطات بالجامعة التونسية ليتزودوا بها ويمتدعوا الباحثين بنسخ ولو مصورة منها ففي ذلك ارجاع الدر إلى معدنه وفيما يلي قائمة مرقمة حسب الترتيب المكتبي للعلوم بالمغرب حسبما قام به المؤرخ (المنوني) وهذه الذخيرة تتوزع في البلاد المغربية على أربعة مراكز هامة لحفظ المخطوطات الهامة وهي :

1) مكتبة الزاوية المحمزية بتافيلات .

- 1- مشكل اعراب القرآن العظيم لأبي محمد بكر بن أبي طالب (ابن محمد بن مختار) القيسي القرى القيرواني نزيل قرطبة 432 ، 220 بالقرويين .
- 2- كتاب التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل تأليف ابن العباس أحمد بن عمار بن أبي العباس التميمي المهدوي نزيل الاندلس 199 الجزء منه بالخزانة العامة بالرباط 89 ق .
- 3- تفسير القرآن الكريم لأحمد بن محمد بن أحمد البسيلي (جمع فيه املاء شيخه محمد بن عرفه التونسي في دروسه 93) .
- 4- كتاب الجمع الغريب في ترتيب مغنى اللبيب لمحمد بن قاسم الأنصاري التونسي الشهير بالرصاع 89 .
- 5- ملخص الوطا لأبي الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القابسي المالكي 192 ونسخة أخرى عددها 1390 ل .
- 6- رسائل صوفية لأبي فارس عبد العزيز بن خليفة القسطنطيني نشأة التونسي دارا .
- 7- المهذب في مسائل المذهب لمحمد بن عبد الله بن راشد البكري القفصي .
- 8- مجموعة تشتمل على شرح أبيات الجمل لأبي القاسم الزجاجي ، الشارح علي

- علي بن محمد بن أحمد بن حريق الأندلسي البلنسي (نسخة بالاسكوريال) .
- 9 - شرح رسالة ابن حريق لأبي الحجام يوسف بن محمد بن ابراهيم الأنصاري الأندلسي البلنسي 132 .
- 10 - تحفة المجد الصريح من شرح كتاب الفصيح لابن جعفر أحمد بن يوسف الفهري البلي 131 .
- 11 - زهر الآداب وتمر الألباب لأبي اسحاق ابراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني 64 .
- 12 - رسالة في العمل بالاصطراب لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الداني 80 .
- 13 - كتاب المنافع البيئة وما يصلح للأربعة الأزمنة لمحمد بن علي بن محمد المكي عبد الرحمان بن أحمد بن عبد الله بن محمد المكني بنميس ابن عبد الله بن بلقين بن باديس 9 .
- (2) بالفحزة العامة بالرباط :**
- 1 - الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني علوم القرآن لأبي محمد بن أبي طالب ك 337 .
- 2 - الجامع الصحيح لابن عبد الله أحمد بن اسماعيل البخاري الجعفي 955 .
- 3 - شرح الجامع الصحيح للبخاري تأليف ابن عبد الله بن محمد قاسمي الأنصاري التونسي المعروف بالرصاع ك 100 .
- 4 - (صلة السمط رسمة المرط في شرح سمط الندى في الفخر المحمدي) لابن عبد الله محمد بن علي المعروف باسم الشباط التوزري ق 100 .
- 5 - تحفة اللبيب في الرد على أهل الصليب لابن محمد عبد الله الرحمان الميروقي نزيل تونس د (3233) .
- 6 - نسخة أخرى تسمية (تحفة الأديب) في الرد على أهل الصليب د (2445) .
- 7 - عيون الأخبار : مؤلفة غير مذكور ق - 211 .

- 8 - لباب تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح لابن جعفر أحمد بن يوسف الفهري الليلي ج 100 .
- 9 - بغية الامال بمعرفة النطق بجميع مستقبلات الأفعال لابن جعفر المتقدم ك 235 .
- 10 - قطب السرور لابراهيم بن القاسم الكاتب المعروف بالرقيق القيرواني تحدثت عنه مجلة الثريا التونسية السنة الأولى عدد 12 ق 1315 .
- 11 - نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب لأبي العباس أحمد بن يوسف القفصي التيفاشي (راجع كشف الظنون ج 2 ص 502 وكذا في ايضاح المكنون ذيل كشف الظنون ج 1 ص 549 ك 1533) (4) .
- 12 - قطعة من كلام ابن المطرف بن عميرة نزيل تونس ودفينها ك 233 - 232 .
- 13 - ديوان لأبي اسحاق ابراهيم الرياحي جزاين طبع بتونس 1320 - ك 1763 .
- 14 - كناش لأبي عبد الله محمد بن الحاج عثمان بن محمد بن محمد السنوسي بن عثمان بن الحاج محمد بن أحمد المعروف بابن مهنية التونسي الكافي ك 1935 .
- 15 - الحلل السندسية في الأخبار التونسية لابن عبد الله السراج ك 2266 .
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>
- 16 - الكتاب الباشي من الدولة الحسينية للوزير حمودة بن عبد العزيز ك 2265 .
- 17 - المشروع المالكي في دولة أولاد علي تركي لمحمد الصغير بن يوسف الباجي د (1962) .
- 18 - الأنوار السنية في أباء خير البرية لابن محمد بن عبد الرفيق بن محمد الشريف العجفري الأندلسي المرسي المالكي نزيل تونس ك 1238 .
- 19 - معالم الايمان وروضات الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان لابن زيد عبد الرحمان بن أبي عبد الله محمد الانصاري الاسيدي المعروف بالدباغ القيرواني ق 215 - ك 358 و ك 214 .
- 20 - سمط التلال في بيان ما اشتمل عليه كتاب الشفاء من الرجال للشيخ قويسم بن علي التونسي ك 1376 .

- 21 - رسالة من العمل بالاصطراط لابن الصلبيات امية بن عبد العزيز 80 .
- 22 - غنية الطالب في تقويم الكواكب لابن علي حسين قصعة بن محمد بن الحسين الحتفي التونسي ج 31 .
- 23 - كتاب طب الفقراء والمساكين لابن جعفر أحمد بن ابراهيم ابن أبي خالد القيرواني ك 938 .
- 24 - كتاب شرح الفيه ابن سينا - في الطب لأبي العباس أحمد بن عبد السلام العقل الشريف الحسين التنسي ك 1568 .
- 25 - العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع وضعه بالاسبانية ابراهيم غانم الشهير بالاسبانية .

3 (المكتبة الملكية بالرباط :

- 1 - كتاب الوفاء ببيان فوائد الشفاء لابن محمد عبد الله بن أحمد ابن أبي القاسم التيجاني التونسي صاحب الرحلة 4016 .
- 2 - ديوان لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الاندلسي البلنسي نزيل تونس ودفينها ابن الابار (يراجع ابن الطواح في سببك العقال 4602) .
- 3 - محاوره العرب مجهول المؤلف 2417 .
- 4 - كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الابار 1411 .
- 5 - سبك المقال لفك العقال لأبي محمد عبد الواحد ابن محمد بن الطواح التونسي
- 6 - كتاب السياسة لأبي بكر بن الحسن المضرمي القروي المعروف بالرازي 260
- 7 - زهرة الافكار في جواهر الاحجار لأبي العباس أحمد التيفاشي 1678 .
- 8 - تدبير الاطفال لأبي جعفر أحمد بن ابراهيم ابن أبي خالد القيرواني المعروف بابن الجزار 1044 .

4 (بخرانة القرويين بقاس :

- هي مجموعة جات ضمن بعض الخزائن .
- 1 - عيون الأخبار (الخزانة العامة 211 وبقرويين)

2 - صلة السمط وسمة المرط في شرح سمط الندى في الفخر المحمدي بالخزانة العامة ايضا 110

3 - قطب السرور بالخزانة العامة ايضا 156 .

4 - معالم الايمان ورفات الرضوان بالخزانة العامة ايضا 215 .

5 (خزانة ابن يوسف بمراكش :

1 - اباكار الأفكار لمحمد بن سعيد بن احمد بن شرف القيرواني 702

2 - تاريخ افريقيا والمغرب لابراهيم الرقيق القيرواني 193 .

* * * * *

هذه طائفة مما يوجد حاليا في المغرب من مخطوطات تونسية البعض منها نشر كالحلل السندسية والتاريخ الباشي وتاريخ الرقيق ومعالم الايمان وزهر الادب والبعض نيام هناك بعيدا عن الوطن الام ، ولعل الهمم تتحرك وتقيد الباحثين بكشف العطاء عنها وخدمتها وعلى كل هذه جولة سريعة في عالم المجلات المغربية ومن خلال اعمال الباحثين امكن لي الاشارة إليها وكل أملي أن يكون هذا الكشف المرقم وثيقة حية لكل باحث ولعل المهتمين بالمخطوطات يقيّدوننا بما يعثرون عليه من نفائس أخرى غير التي ذكرتها فنكون بحق دليلا لمخطوطاتنا في المغرب العربي أولا ثم في بقية المكتبات خارج الوطن ثم داخل البيوت التونسية ./.

سليانة العز

شعر : محمد الناصر السكراني

عن مقلتي غاب الوسن مذ غاب وجهها الحسن
سليانة العز التي جاد بها الدهر ومن
أكرم بها من موطن يسمو على كل وطن
شعلي بها فانتنتي شعل المحب لمن يحن
القلب أضناه الجوى والصبر أفناه الشجن
نار المحبة أضرمت في الصدر واشتد الحزن
إن جن ليل هزني شوقي إلى ربع أغن
ربع كريم مأمّن للنفس أن كدر الزمن
ربع عريق كله ذوق وإحساس وفن
رب صنه على المدى وأحرسه من كل المحن
واكتب هواها في دمي حتى يواريني الكفن

ثنائية الزمن

شعر : علي السعيد

- 1 -

اخبريني أي جدوى لإخضرار الكلمات
فسي دجى ينضج بالرعب عميق الظلمات
لم تزل تعبت في الأفق الرياح
تتوارى نظرة الحقل لتمتد مساحات رمال الغلوات
شاحب وجهك يا صحراء ، بلون الغسقاط
تاريخك في كل الطبول فجيلة
فمتى أشهد لبون الفجر استقبل رايات الكون
ومتى تودق في وجهك أوراق الطبيعة !

- 2 -

يعرف الريح عقوداً
ونقوداً
ويرى في مقطع الشعر الخسارة
حين يمتد في وجه الاضواء المنيرة
ظلّ حاجزاً من تراب ، أو حديد أو حجارة
أه ! لا يبقى سوى أن ينزف الشعر دماً
مرثية للفكر في عصر الحجارة
فامض يا قلب فما نبضك إلا
مقطع للحن خائته العبارة !

تساويح الوجد

الخالقُ / الباسقُ / الواثقُ / الخافقُ / النابضُ
 الرافضُ / اللافظُ / الساقى .
 الواقيُ / الرأقي
 الخالقُ لي / الباسقُ فيَّ / الواثقُ منِّي / الخافقُ قلبي /
 النابضُ دربي / الرافضُ وهي / اللافظُ اسمي /
 الساقى لبلاي زماني .
 الواقي جناني من برد النسيان
 الرأقي فوق أبراج كياني يا شهب المرجان
 الخالقُ لي قلعة تضجُ خيلاً وترتجُ نصالاً وتعوم ماءً فرائاً
 عندها تحطُ القوافلُ منهكةً تتعلمُ سرَّ الخلق .
 الباسقُ في رماناً أغنحَ حيرانَ وأعمدةً بخورٍ أزرقٍ وحكاًيا
 ليس يسعها سفرٌ وليس يدركُ أغوارها إلا أنا .
 الواثقُ منِّي ، لا أبدلُ موثيقه بكُلِّ خزائن سليمان
 وباستبرق الجنة .
 الواثقُ لي برتاج السرِّ الإلهي المكنون ، جمعناً روحاً

صَادِيَّةٌ لِأُخْرَى فَلَمَّا التَقِينَا أَضَاءَ السَّدِيمُ وَضَجَتْ سَوَاقِي الْوُجُودِ /
الْخَافِقُ قَلْبِي ... يَا حَسِيسَةً تَرْفَقُ مَا قَادِرَةٌ هَذِي الْجَوَانِحُ عَلَى
مِثْلِ ذِي أَعَاصِيرٍ .

الْناَبِضُ جَفَنِي ، رَفِيقًا مِنَ الرُّوحِ يَنْدَاحُ فِي الْوَرِيدِ يَصْأَعِدُ
مَعَ جُذْرَانِهِ طُحْلَبًا غَرِيبَ اللَّوْنِ وَالشَّدَى يَسْكُنُ ، يِعْرَشُ ، يَشِي
، يُوْشُوشُ .

الرَّافِضُ وَهْمِي ، الطَّارِدُ هَمِّي ، الْمَاطِرُ يَهْمِي شَائِبَ فُضَّةٍ
وَيَاقُوتٍ .

الْلاَفْظُ اسْمِي نَايَا جَرِيحًا وَحِثْحِثَةً رِيحٍ ، يَا حَارِقًا حَطَبَ الرُّوحِ
وَمُصْطَلِيًا بِالْبُوحِ !

يَا السَّاقِينِي أَقْدَاحُ رَاحٍ مَدُّ وَشَاحِي وَلْتَسَامَرْ تَيْنُ الْهُوَى
عَذْبُ فَلْنَقْطُفْ مِنْهُ شَاقٍ وَرَاقٍ وَقُلْ مَعِي : يَا خَالِقَ الْحُبِّ ، وَبَاسِقَ
الْأَبِّ ، وَوَاثِقَ الْقَرَبِ ، وَخَافِقَ الْقَلْبِ وَرَافِضًا دَرْبَ النَّوَى >> وَالنَّجْمِ
إِذَا هُوَى مَا ضَلَّ >> الْقَلْبُ >> وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَى
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَى >>

مَجْرَدَةٌ

شعر : محمد عياشي طامع الله

مَجْرَدَةٌ غَنَى فَأَشْجَى ضَفَّتَيْهِ مُوَكَّبٌ لَاحَ فَأَغْرَى عَاشِقِيهِ
مَوْجَةٌ سَكْرَى تَدَاعَتْ كَالسَّلَافِ زَغَرْدَتْ نَشْوَى عَلَى عُنَابِ فِيهِ (1)

يَا سَمَاءَ فَوْقَ قِرطَاجِ الْجَلِيلَةِ ضَمِيءَ الْقَلْبِ لِدُكْرَاكِ الْجَمِيلَةِ
كَمْ غَفْتُ نَفْسِي عَلَى طَيْفِ الْخَالِيَةِ هَتَفْتُ تَشْدُو وَتَلْهُو وَتَتِيهِ
مَوْطِنِ الْأَشْوَاقِ يَسْجُو بِالْقَوَافِيسِ صَفْوَةُ الْحُبِّ تَجَلَّتْ فِي بَنِيهِ

أَهْ كَمْ أَخْشَى فَوَادًا لَأَيُّبَالِي بِجَمَالِ اللَّيْلِ فِي غَرْبِ الشَّمَالِ
سَحْبٌ تَغْفُو عَلَى دَمْعِ الْجِبَالِ وَدَمٌ يَهْفُو لِأَحْلَامِ الْخِيَالِ
فَتَعَالِيْ نَمْلًا الْكَأْسَ تَعَالِيْ وَنَحَاكِي الطَّيْرِ فِي لَحْنِ شَبِيهِ
فِي انْعِطَافِ السَّيْلِ نَهْذِي فِي انْعِطَافِ وَنَطُوفِ فِي دُرُوبِ شَاطِئِيهِ

مُدُّ عَرِفْتُ الْحُبِّ أَغْرَتْنِي عِيُونُهُ لَمْ أَكُنْ أَدْرِي جَفَاهُ وَشُجُونُهُ
رُبُّ لَيْلٍ يَنْزَعُ النَّفْسَ سَكُونُهُ وَيَقِينُ الْقَلْبَ لَا يَغْشَى ظُنُونُهُ

أَهْمَا أَحَلَّى الدَّوَالِي بِالضُّفَافِ وَشَذَى الرِّيحَانِ يَسْبِي زَانِرِيهِ
 فَتَعَالَى نَمْلًا كَأَسْتَعَالَى وَنَحَاكِي الطَّيْرِ فِي لَحْنِ شَبِيهِ
 مَجْرَدُهُ الْغَالِي سَرَى سِحْرًا بِيَالِي وَرِيَاضُ الزَّهْرِ فِي أَوْجِ الْجَمَالِ
 خَالِدُودُ الْبُرُوجِ لِلْجِبَالِ وَصَدَى الْمَوَالِ فِي لَيْلِ الشَّمَالِ
 عَاشِقًا كُنْتُ بِأَيَّامِي الْخَوَالِي تَائِقُ النَّفْسِ لِأَحْلَامِ الْمَعَالِي
 وَحَبِيبُ الْقَلْبِ يَغْرِيه جَلَالِي وَهَزَالِي مِنْ لُظَى الْحَبِّ الْمُحَالِ
 كَانَ يَغْشَانِي شَذَاهُ فِي الطَّوَافِ وَلِطَافِ النُّسَمَاتِ تَعْتَرِيهِ
 فَتَنِيهِ الرُّوحُ فِي وَهْمِ السُّوَالِ وَتَرَى الْعَاشِقَ فِي عُجْبٍ وَتِيهِ

مَجْرَدَهُ غَنَّى فَأَشْجَى ضَقَّتِيهِ
 مَوْكِبُ لَاحٍ فَأَغْرَى عَاشِقِيهِ %

<http://ArchiveBeta.Sakhrat.com>

* فامش :

(1) عُنَاب : وَاحِدَتُهُ عُنَابَةٌ ، فَاكِهَةٌ مِنْ فَصِيلَةِ النَّبَقِيَّاتِ وَأَجْوَدُهُ الْأَحْمَرُ الْحُلُو ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ شَقَّتَا الْحَبِيبَةِ . وَهَذَا مِثْلُ مَا جَرَّدَهُ تَبَدُّدُ فِي زَهْوِهَا وَجَمَالِهَا كَالْعُنَابِ عَلَى " فِيهِ " أَيِّ فَمِ مَجْرَدِهِ .

مقعد الليلة الباردة

شعر : الأزهر النفطي

بين الأنسا والصدى :

شرح متسع للسؤال

لحروف نبض القلب بها

حملت أنساقها تفاصيل دمي

هذه محبرة ، بياض وكتاب

عرشت في أضلعي

سكنت منفي يدي <http://Archivebeta.Sakhril.com>

مذ لبست سترة الطفل في ثنايا السفر

مذ أطل عاشق الصحراء على شجر الرفيف

على مقعد الليلة الباردة

تركت ملامح الأصدقاء

وسافرت نحو مرافئ الكلمات

حملت القصائد أشربة

عبرت به على زورق من حرير الكلام

أجر قوافل الذكرى وراني

فتخرج عليسة من خدرها
تبائع فحوى معاني التخوم
تراودني نحو جنح الضلّام
تعانق ظلّي بين السطور
أعود إليها فتحبل كل الخلايا بشعري
وأصغي إليها

لتقرأ لي من كتاب العصور
لتكتب حرفي على كلّ نجم
فأجثو طويلا على ركبتيها
وألقي يدي على كتفيها
أصافح قرطاجة بالحنين
أعود إليها

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

أراها تخطط نسيج المعاني
ترقّع أشعارنا في الزحام
أعود إلى مقعد اللّيلة الباردة
ألوذ بصمت الرّفاق القدامى
لاكتب للآتي
على خيمتي عروة والأعشى
قصائد أصواتنا الواعدة

إلى اللقاء

السعيد المنصوري

نامى بنفحة الروابي

على أشهى ثرى

نامى . . .

يا لبوة الغاب

قرنفلة المساء -

حوريه الأحلام

حبيبتى نامى -

سأسأل المساءات عن خبزك

عن فرح اليتامى

عن التئور -

عن عطرك -

عن البخوز ورائحة الخزامى -

حوريّة الأحلام

حبيبتى نامى -

سأسأل الصباغات عن صلاة الأتقياء -

عن طحين القمح / جلجلة الرّحى -

عن تراتيل ميلاد النّبيء . . .

نامى على أشهى ثرى

فشمسك لم تغرب

حوريّة الأحلام

حبيبتى نامى -

بأيّ دمة أرثى بهاك والرّضى -

بأيّ لحن أعزف وصلة حزن للمدى -

فلا الياسمين من بعدك هو الياسمين

ولا الرّيحان بعدك مرّ من هنا -

بزى جسرة أودّعك الآن دون لقاء ! ...

حوريّة الأحلام

حبيبتى نامى -

القصرين 1994

خمريّة ..

بقلم : مسعودة أبو بكر

صدع المؤذن بأذان الفجر .

نهض عبّودة من سقطته

زأغت به خطوة مترنحة إلى اليسار ، جرّته أخرى إلى اليمين ليلتقطه جدار رطب
أسند إليه جذعه ..

مال برأسه يتأمل شيئاً ما لاح له أسود يمتدّ طويلاً متعرّجاً فوق الجدار ،
تحامل على نفسه ليقف مستويا وهو يجاهد **تعتة السكر** .. ظلّت ذراعاه تضربان
الفراع .. تعلّى من ذلك " الشيء " الأسود الذي يعتدّ على الجدار المشروخ ..
اتضح له سطر خطّ بالفحم ، تهجّى حروفه .. وما لبث أن ضجّ بالضحك ..
" ممنوع وضع الأوساخ والبول "

عاد يقترب من الجدار ..

ثبت منفرج الساقين فتح سراويله وطفق يرشّ الكلمات المخطوطة بالفحم ، بماء
مثانة .

خيل له أنّ الجدار يضجّ هو الآخر ضحكا ، وأنّ الحروف السوداء الغليظة
ترتعث مغتاظة .. خرّت ركبته في موضع قدميه .

صدع المؤذن ثانية يذكرّ بصلاة الفجر ، أدمعت عينا عبّوده وهو يتأمل بعض
القمامات تغالب النّوم وتغذي السّير صوب المسجد .. زأغ بصره ناحية الأفق ،
خيوط الفجر تتأثّى عند مشارف الحيّ تمهل الليل حتّى يرحل بهلوء ..
مسح عبّوده أجفانه المبلّلة وما عهد نفسه إلا شديدا لا تبضّ عينه للعة ...

ما زالت نواقيس الخمرة تقرع دماغه .. غمغم بنبرات ثقيلة :

>> رَبِّي ! .. هل أنت مع هؤلاء القاصدين المسجد ؟؟ دعهم والتفت إلي .. دعهم يتدثرون بحلوة إيمانهم ... ودفع صلاتهم ... أنا أحتاجك أكثر ... أم أنني مقرف وسخ ؟؟ ... وحقّ جلالك لي بين الضلوع قلب نظيف ... أنت تعلم ذلك .. كن معي هذا اليوم ... أريد أن أصحو ...

هاجر ابنتي ستتزوج ... ستزفّ الليلة ! ... أريد أن أصحو اليوم لأدقّ دماغ ذلك العجل الذي سلب عقل هاجر !! ..

ابنتي عاقلة ... فطنة ... تحرص كلّ صيف على ملء الجرار بالبيت دقيقا وتوابل وقديدا .. تزودّ خزانة الأولاد تباين وقمصان وكراريس ولغافات حلوى

تدفع فواتير الكهرباء والماء دون تذمر ... اللهم أنت تشهد أنني ما كنت من مبذري الماء !! ثم إنّ الماء إذا دلّفته على جسدي أطاش السكرة ...

هاجر ابنتي تحضن كلّ الدنيا بساعدين لا يعرفان كلا .. وقلب كبير كالفرح .. ابنتي " فحله " إنها تضاهي عشرة رجال .. عيني عليك يا هاجر ! ... أطاش عقلك ابن الـ أشعلها الله في ذبّره بقدر ما أشعلها عند قلب أبيك ...

من لي ؟! ... من لأخوتك ؟؟ .. من لأمك يدرأ عنها شرّي إذا ما ارتعشت يداي ، وهدر غضبي ، وهممت بتكسير عظامها كلّما أشهرت لسانها ؟؟

ابن الـ سيصحبك إلى بيته ، ويغدو مطرّح فارغا كأيّام أبيك الخاوية من الهناء واليسر آه يا هاجر يا ابنتي من يصبّ على رأسي الماء إذا تشنّجت صبيحات عودتي ؟؟

من يدلق في فمي كأس البنّ المرّ ويجذب في سمعت سراويلي المعفّرة ينضّوها ليمدّني بها عند الظهيرة فأمضي من جديد لمشقتي ؟ ... من يزعق في صبية الحيّ ينهرهم عني أثناء عودتي المبعثرة إلى البيت ؟؟ ..

أيّ ربّي .. قدرني على الصّحو غدا فهاجر ابنتي ستتزوج ..

جال ببصره بين أصابعه الغليظة .. اسودّ الإبهامان والسبّابتان لمعاشرة التّبغ

الرديء ..

« لا أحتاج لغير يديّ !.. لن أستعين بألة أو حجر ... لابد أن تصلح هذان اليدين
لأمر ما ! >>

طلق يقوُس أصابعه ثم يشدهما في قبضتين ... يتأمل عروق معصميه وقد
برزت واحتقنت .

« هذان القبضتان كفيلتان بأن تغلقا رأس ذاك العجل ... عليّ أن أصحو .. !! >>
اضطربت خطاه وهو يستوي قائما سأمسك بعنقه وأضغط سأضغط حتّى
تهجر روحه الجسد ... لا ... بل سأهوي على رأسه بقبضتي .. !!

أخ من النساء ... يكفي أن يطنّ عند رأس الواحدة منهنّ رجل ، حتّى تنقلب
على رأسها كقارورة نبيذ !

* * * *

الضباب يسربل خطى الصباح كثيفا ندبا ،فرك عبّوده عينيه ... تبيّن قامة متائية
تطلع من الرّفاق باتجاه الطريق الرئيسية صوب المصانع .. « هو ذا ابن الـ
هو ذا الفحل الذي أطاش عقلك يا هاجر .. هو ذا الذي خطف منك ابنتك يا
عبّوده ! .. فلنكن رجلا ... استنهض لك همة مرة في حياتك .. يوما من سلسلة
أيامك التّعيسة ... ألن تصلح لغير لعق الكؤوس !! وصبّ القوارير حتّى أعقابها ؟
أيفتك منك ذاك الرّجل زينة البنات وسارية بيتك ؟ >>

دنا عبّوده من القامة الملتحفة بضوء الصبح وبعض الضباب ... أفرد قامته ..
ضغط بأصابع يده اليمنى على باطن كفّه .. امتدت يده اليسرى إلى جيب سترته ،
راحت تتحسّس شيئا ما صلبا وصقيلا ..

أخرج يده ، مسح على شاربيه ، برقت عيناه بمخائل فرح غريب .
توقّف إذ اقترب من مقصده ، استقام متنه ، كأنما استعداد صحوه فجأة ونسائم
الصباح تسري عبر عضلاته الواهنة فتشحنها بقوة غريبة .

رفع قبضته اليمنى وهوى بها على الجسم الذي استوى أمام حدقتيه ...

ضربة أولى ، ضربة ثانية ثم الثالثة ..

بوت الضربات تشرخ سكون الصبح الوليد ، فزع قط أعجف كان يتكور عند
إحدى الزوايا ، اندفع مبعثر الفرار ..

علا نباح كلب من باحة أحد المنازل ...

انكفا طست من الصفيح ونشر نفاياته على الإسمنت .. انطفأت فوانيس الشوارع
وبدا ضوء الصبح سيد المكان .

« صبح تريخ ! مالك يا عبوده !!... يا فتاح يا رزاق ، ألن تتوب لمولاك وتقلع عن أم
الخبائث؟



ARCHIVE

أترك أخطأت وجهة دارك كالعادة ؟! ..

تقهقر عبوده مذهبولا .. بحث عن مصدر الصوت بعينين متورمتين .. شعر كما
لو أن قبضة يده قد تناثرت شذرات وقد تصدع ساعده ألما ، في حين تداعت ركبته
عند عتبة الدكان الذي تحامل على بابه دقا وركلا ، ومن الأعلام أخرجت يا فطمة
كادت الأحرف التي تشكل عبارة " مصاغة " يلون أسود ، تنثال على رأس عبوده.
عاد صوت الرجل الذي لم تتضح ملامحه يزق من جديد « ما لك يا أخي !
.. اللهم احفظنا من شر من لا يخشاك ومن شر إبليس .. ماذا تريد عند باب
المصاغة ؟! أأزمت شرأ يا عبوده !!!? ..

تهدل برنس على كتفي الرجل وقد شنج الغيظ ملامح وجه بدت عليه الدعة
والراحة .. هر عبوده رأسه ، تفحص مخاطبه مليا غمغم لنفسه :

« يبدو أن الرجل السعيد صاحب المصاغة قد أساء فهمك يا عبوده وهل تشي
ملامي بأنني لص ... أنا شريب شريف ، أفضل ألف مرة أن أحك وأغسل جليز

الخمّارات على أن أمدّ يدي لحلال الغير ! .. >>

رفع صوته ممطّطا الحروف واقترب من صاحب الدكان

– انظر يا سي ... لا تسيء الظنّ بالرجال ..

يظلّ الرجل حتّى لو تفتعه السكر ..

جنتك لأمر خطير وأريد أن أقضيه عندك على عجل ... خذ امسك >>

دسّ عبّوده يده في جيب سترته ، تلمّس الشيء الصّلب الصّقيل ، أمال رأسه

إلى الخلف ، صوّب نظرة واثقة نحو صاحب الدكان وكسا ملامحه مهابة المواقف

الهامة .. علّق نصف ابتسامة على جانب فمه وأردف :

– خذ هذا الخلخال ، إنّه من الفضّة الخالصة ، كانت أمّ الأولاد تتحلّى به أيّام العزّ

.. أريد أن استبدّ له بمقياس (1) أو اثنين من نفس الفضّة ، ومن ذلك النوع

الذي يحلو لنساء هذه الأيام صغيرات السنّ التحلّي به ..

ابنتي هاجر الماكرة ستتزوّج هذا اليوم ، انظر انظر كم هو صقيل ... امسك ..

امسك إنّه مليء وثقيل يعادل مقياسين أو ... أو ثلاثة .. أنا صاح وأعني ما أقول ..

لا تشكّ بكلامي ... سأظلّ صاحباً حتّى تزفّ ابنتي وأقدّم لها هديتها ...

هياً افتح الدكان واستفتّح !! تأكّد من معدن هذا الكنز واستبدّ له بمقياسين

هذا يكفي ! ...

بزغت الشمس وقد انتال الضباب طبقة نديّة رقيقة خضبت بلاط الشارع

والباحات وعتبات المنازل وعربات الحمالين وزجاج سيّارة بانع اللّبن المبكّر ..

انعكست خيوط الشمس حانية على المعدن الصّقيل لخلخال من الفضّة العتيقة ،

تمسك به أصابع عبّوده المرتجفة تدنيه في إلحاح من جدقتي صاحب المصاغة في

حين ظلّ يؤكّد بلكنة لم يعتقها السكر :

– تعلّى من معدنه الخالص .. أريد هديّة لهاجر ابنتي ...

أريد أن أستبدّ له بمقياسين ... إنّها ستزفّ الليلة >>

لا تتردّد مقياس واحد يكفي ... (1) حلي بلبس في المعصم

" الإتحاف " تحتفل بعددها " الخمسين "

بقلم : فوزية علوي

سكر الهوى فتأودت أعطافا
ودنا الجنا فتهدكت ألفافا
وتبخترت في حلة ريانة
ورد الخمائيل زانها أفوافا
وسرى عبيير الأس في أردانها
وجُذ الزنابق خضب الأطراف
همس الندى لغصونها فتمايلت
وشكا الهوى فترنعت أعرافا
في كل ركن روضة فنانة
سخر بدا لم يهمل الأكثافا
في كل شهر حلة مزدانة
روح الجمال قد هفا أطيافا
تتعانق الأيام في طياتها
خلف أتى لم ينكر الأسلافا
ما غادة هذي التي علقتها
بل واحدة قد ألفت ألقا
حفلت بها الدنيا فهبت كلها
لتزيد أهلها بالملنى " إتحافا "

من كلّ حذب وصوب قدم أحباب " الإتحاف " يحيون بصادق الودّ احتفالها " بالعدد الخمسين " . وما في مطالبهم إلاّ الحذب والحبّ والأمل في مستقبل وضاء لهذه الغادة الفحاء التي عاشرتهم تسعا من السنين وهي تجهد في أن تقدم لهم من جناتها ألفاظا ومن حباتها قطافا . وتجمعوا في فناء الكلمة العذبة فتبادلوا زلالها وقاؤوا في ظلّاتها وقطفوا براعم الشّعر فاستجابت لهم بعبيرها تحييم وتقسح لهم عريشا بروداً ومستراحا نضراً ..

وقد شهدت أيام 9 و 10 جويلية 94 نشاطا مكثفا يكشف عن حرص الساهرين على هذه المجلة ويقينهم بأنّ الكلمة وحدها هي الكفيلة بمكافحة الرداء وأنّ الفكر وحده هو الصانع للتاريخ .

وشهد يوم الافتتاح جلسة علمية أولى تمثّلت في محاضرة ألقاها الأستاذ بو بكر بن فرج تمحورت حول الحياة الجمعياتية وما لها من دور في النهوض بالمجتمعات وقامت هذه المداخلة على ثلاثة أسس وهي :

— المشروع الثقافي في ظلّ العهد الجديد

— التقاليد الجمعياتية وعلاقتها بالإصلاح

— الجمعيات والمجتمع المدني .

وأفاض الأستاذ المحاضر في بيان ما للجمعيات من دور فعال في الحياة الإجتماعية ومساهمتها في النهوض بالتربية والاقتصاد .

وأشاد بما أضفاه التغيير من حركية على العمل الثقافي انطلاقا من دعم الإبداع وتشجيع المبدع للنور الرائد الذي يقوم به في المجتمع .

وشهد اليوم الأوّل حدثا عظيما تمثّل في تأسيس فرع اتحاد الكتاب بسليانة بإشراف الأستاذ عبد القادر الهاني وهذا لعمري أسنى وسام تتحلّى به جهة سليانة وخير دليل على الجهود المبذولة من أجل نشر الكلمة الطيبة .

وانعقدت أمسية شعرية لطيفة في فضاء قرية الأطفال (أس أو أس) سبّح فيه الحضور في ملكوت الشّعر وطاروا على أجنحة عبقر وقد أبدع الشاعِر محمد

العبّاشي طاع الله في تقديم الشعراء تباعاً ممّا أضفى جواً من الحميمية والألفة .
واستمع الحاضرون بأصوات عديدة ترتل ما تيسر من آيات الشعر مصحوبة
بنغمات موسيقية عذبة .

فقرأ بلقاسم بن عمّار الشابي
والأزهر النّفطي

وكمال بو عجيلّة

العبّاشي طاع الله

والناصر السكراني

وفوزيّة علوي

ورابح المجبري

وعمر العبيدي

وجنّات إسماعيل

ونور الدين الطّافوتي .

وشهد اليوم الثاني نشاطاً مكثفاً استهل بمعرض ضخم أعداد " الإتحاف " الخمسين وعدداً من رسائل القراء والمحبّين ويلاحظ الزائر بجلاء التطوّر الذي شهدته المجلة كمّاً وكيفاً والجهد المبذول من أسرة المجلة في النهوض بها من حيث تنويع موادّها وحسن تبويبها ولا يفوتنا أن نشيد بمجهود الرّسّام عبد العزيز الدريدي الذي ما فتى يثري المجلة بلوحاته ورسومه واعيا كلّ الوعي بالتّناغم بين الرّسم والكلمة في تأسيس قواعد الجمال .

ثمّ كانت الجلسة العلميّة الثّانية الّتي ترأّسها الأستاذ الحبيب الدريدي رئيس تحرير مجلة " الإتحاف " وقدم فيها المبدع الفاضل الأزهر النّفطي محاضرة تناول فيها موضوعاً شيقاً جمع بين عمق الفكر وشغافيّة التناول وهو : وضع الطّفّل بين أزمة الكتابة وخصائص الإبداع وقد شغفت هذه المداخلة بجملّة من الأسئلة والتعقيبات دلّت على جدية الموضوع المطروح وامتداداً للجلسة العلميّة الثّانية

ترأست كاتبة هذه السطور جلسة جمعت أحناء " الإتحاف " بمحضر مدير المجلة وأسرة تحريرها وأبدى الجميع حدياً على مجلتهم وحرصاً وتقديراً نقداً فيه الكثير من الموضوعية وتاقوا إلى أن تصل هذه المجلة رغم العسر المادي الذي تواجهه إلى أعلى المراتب وهي ، لعمرى مرشحة لذلك لأنها سعت وبكل جدية إلى تنويع موادها وتجاوز النقص .

ودعا الجميع أن يبذل المزيد من السعي بغية ترويج أفضل للمجلة وذلك عن طريق خلق مندوبين لها في الجهات وعن طريق الدعاية في الإذاعة والتلفزة .
وختم اللقاء بالتفكير في الإحتفال الذي تنوي " الإتحاف " القيام به بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيسها وتشكيل لجنة لهذا الغرض برئاسة الأستاذ عبد القادر الهاني يتمثل دورها في وضع تصور لموضوع هذا اللقاء المتميز .
وفي خاتمة هذه الجلسة الشيقة وتضافح الضيوف على أمل التواصل والتفكير المشترك فيما عساه يدعم المجلة فينتفع الناس ، ويمكث في الأرض .

